MAS_810_20/01

الجمهوريـــة الجزائريـــة الديمقراطيـــة الشعبيـــة

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

Université Abou Bekr Belkaid جامعة أبي بكر بلقايد

تلمسان الجزائر

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

مكتبة اللغة و الأدب العربي

2013

Fac.LLT.039

تخصص: حضارة عربية إسلامية

مذكرة لنيل شهادة الماستر في الحضارة العربية الإسلامية

الموسومة بـــ:

جمالية فن الرحلة

- ابن بطوطة نموذجا-

إعداد الطالبة:

زواوية طيبي

إشراف:

أ.د. محمد مرتاض

السنة الجامعية: 1432-1433هـ/2011-2012م

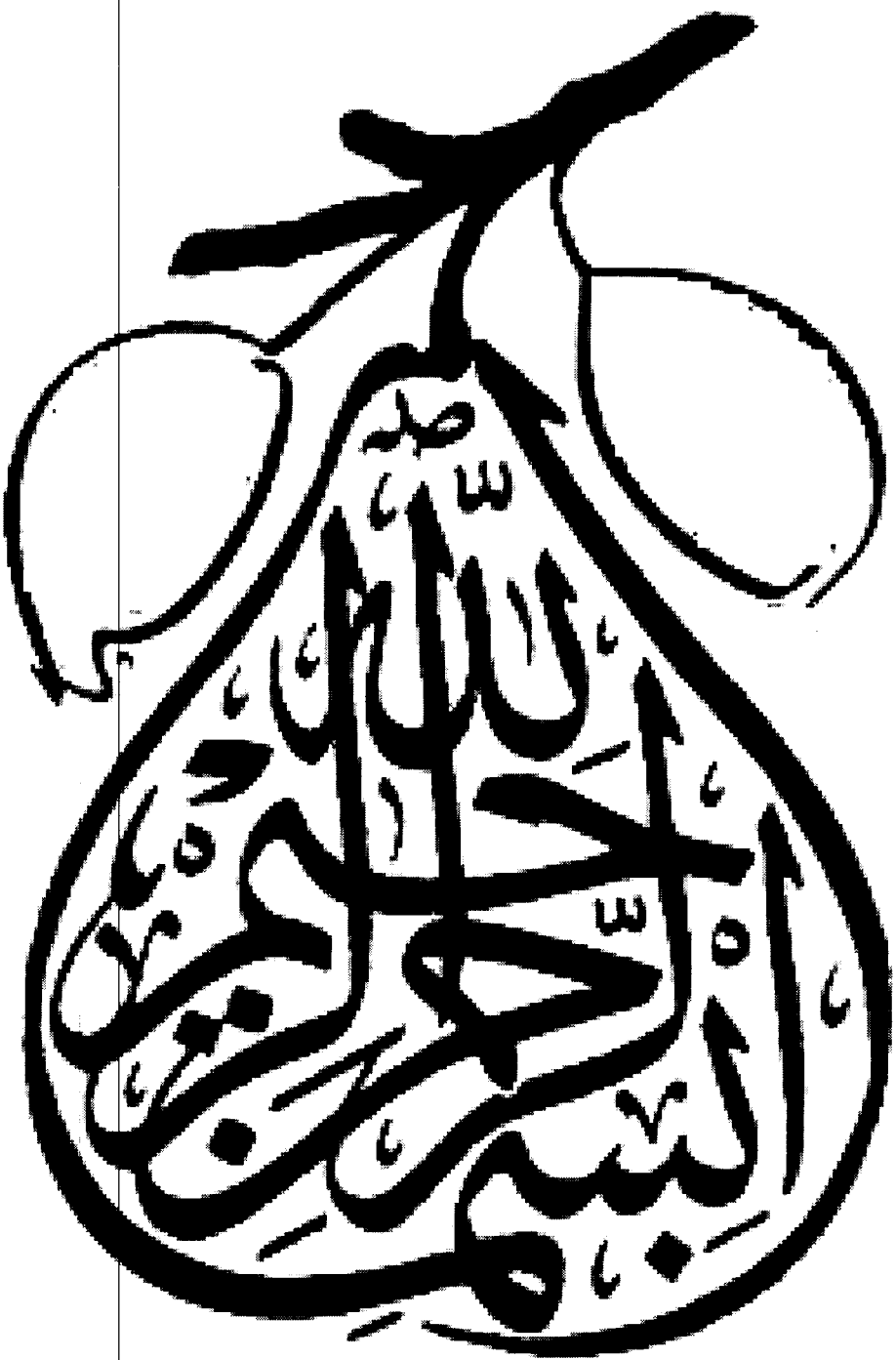
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى النور الذي أضاء لي درب النجاح أمي العزيزة أطال الله عمرها .

إلى من ساعدني في كفاحي ولم يبخل علي ّ، إلى الذي رباني وتعب من أجل أن أشق لنفسي طريق النجاح والسعادة أبي الغالي حفظه الله .

إلى كل إخوتي وأخواني .

إلى صديقاتي وزملائي بقسم الحضارة العربية إلى كل الأساتذة من الطور الابتدائي حتى الجامعي .

أهدي ثمرة جهدي إلى كل باحثٍ وطالب علمٍ

شكر وعرفان

أهدي شكري الخاص إلى الأب الروحي الأستاذ الدكتور محمد مرتاض الذي أنار لي طريق المعرفة ولم يبخل عليّ بنصائحه المفيدة، فكان الأستاذ والصديق والأب المثالي قضينا مع بعض أجمل اللّحظات ونحن ندرس هذا الموضوع، وأتمنى أن تكون نصائحهُ ومساعدتهُ لي في ميزان حسناته وأن يثبته اللّه في سبيل العلم.

مقدمة

مقدمة:

لقد ارتبطت حياة الإنسان ارتباطًا وثيقًا بالتنقل الدائم والسعي في أرجاء الأرض طلبا للرزق، ثم طلبًا للمعرفة. فأصبحت عادةُ الترحال متأصلةٍ فيه حتى قيل "ولد الإنسان راحلاً".

إن الرحلة متصلة بتاريخ الإنسان منذ أقدم العصور، فأول رحلةٍ قام بها الإنسان هي رحلة من بساتين الجنة إلى سطح الأرض وإليه أشار قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [سورة البقرة، الآية 38]. وقد أطلق المؤرخون على هذه الرحلة المبكرة أسماء مثل الانتقال أو الهبوط لكن على الرغم من ذلك لا يبالغ إذا قلنا أنها رحلة لأن كلمة رحلة تشارك في معنى الانتقال وما شاكله بصفة عامة.

وقد شكلت الرحلة بالنسبة لمسلمي الغرب الإسلامي منذ فجر الدعوة الإسلامية إشراق شمسها على ربوع هذا الجانب من العالم الإسلامي هاجسًا دائم الحضورِ ومطلبًا قوي الإلحاح ورغبة دفينة في النفوس سرعان ما تعبر عن ذاتها وتتفتق مستندة إلى الواجب الديني ممثلاً في الركن الخامس من أركان الدين الإسلامي ومتكئةً على تقاليد راسخة في شدّ الرحال نحو الأفاق بحثا عمّا تجود به من زاد ديني أو دنيوي، إن الرحلة بأنواعها الدينية العلمية والسياحية مثلت طريق المجد وشكلت سبيلاً للشهرة والتألق في مجتمع ظلّت أنظاره وقلوبُه وأفئدته مرتبطة بالمشرق كرمز للصفاء والطهارة والنقاء وكمنبع للشريعة والحقيقة.

أما دوافع اختياري للموضوع فيتمثل في دافعين:

* إن الدافع الذاتي الذي جعلني أطرق فن الرحلة باعتبار هذه الأخيرة الأكثر استجابة للتحولات والأحداث التي تعبر عنها الأمم والمجتمعات وهذا الحلم كان يراودني منذ الصغر إلى أن وصلت إلى درجة اقتناعي بهذا الموضوع وأنا أدرس بالدراسات العليا، كذلك أردت أن أُضيف اسمي إلى القائمة التي تناولت هذا الفن بالدراسة والبحث.

* أما الدافع الموضوعي فأردتُ أن أضيف شيئًا جديدًا إلى ما كتبه الباحثون على بحثي عن هذا وإثراء المكتبة العربية في الجزائر والمكتبات الجامعية بصورة خاصة وبعد هذه التوطئة أطرح الإشكاليات التالية: ما هي الدوافع الأساسية التي جعلت الرّحالون وخاصة المسلمون منهم يقومون بالرحلة

- أين تكمن جماليات الرحلة العربية؟

- ما هي تجليات التصوير في رحلة ابن بطوطة؟

إن أي بحث أو عمل فكري أو أدبي لا يستطيع أن يبني نفسهُ من فراغ ولذلك فإن هذا البحث اتّكأ على دراسات سبقته ومصادر أضاءت دربهُ ولاسيّما المضّان الأكثر التصاقًا بهذا الموضوع على غرار:

- جمالية المشهد في أدب الرحلة الجزائري الحديث لعيسى بخيتي.

- الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر عبد الرّحيم مؤدن.

- رحلة ابن جبير.

- الرحلات شوقي ضيف.

- أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري نوال عبد الرحمان الشوابكة.

- وبعد اطلاعي على مختلف المناهج الفنية بدا لي: أن أنسب منهج لبحثي هو المنهج الوصفي القائم على التحليل مع الاستعانة بالمنهج التاريخي.

ولإيصال كل هذه القضايا التي أشرت إليها أعلاهُ فقد ارتأينا أن تشتمل مذكرتنا هذه على مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة وقائمة للمصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات، ففي الفصل الأول الموسوم: "لمحة عن فن الرحلة" تناولنا تعريف الرحلة لغة واصطلاحًا، وأشرنا إلى بواعث الرحلة وانتقينا

الأهم منها التي تتماشى مع مسارِ بحثنا ثم ذكرنا خصائص الرحلة وختمنا الفصل بروّاد الرحلة خاصة المسلمين منهم.

وفي الفصل الثاني الموسوم "بجماليات الرّحلة العربية" وركزنا على الوصف الذي يعتبر اللبنة الأساس التي تقوم عليها موضوعات الرحلة وقد تنوع بين وصف البلدان والأماكن ووصف الطبيعة ثم وصف الإنسان، وفي الفصل الثالث وقفنا على جمالية التصوير في رحلة ابن بطوطة فتطرقنا إلى تجليات التصوير الذي حصرناه في تصوير الأماكن المقدسة وتصوير العادات والتقاليد التي أثارت دهشتنا فأردنا أن ننقلها بكل حذافيرها. إلى القارئ العربي لنكون مرجعًا أدبيًا يرجع إليه كل مثقفٍ تعسّر غليه فهم هذه المشاهد والأحداث المذكورة في الرحلة.

وكانت الخاتمة عبارة عن حصيلة للبحث مع ذكر أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال تحليلنا لبعض النصوص.

وفي الأخير نتمنى أن نكون قد اجتهدنا وأصبنا في هذا البحث وإن لم نصل إلى المستوى المطلوب نتمنى أن يُكمل مسار هذا البحث جيلٌ يأتي من بعدنا.

تلمسان في: 09 جوان 2012م

الطالبة: **زواوية طيبي**

الفصل الأول

لمحة عن فن الرحلة

الرحلة لغة:

رَحَلَ: الرَّحْلُ: مركب للبعير والناقةِ وجمعهُ أرحُلٌ ورحَالٌ، قال طرفة:

جَازت البِيدَا إلى أرجُلِنَا آخرِ اللّيل بِيَعْفُورٍ خَدِرِ.

الرَّحْلُ: رَحْلُ البَعيرِ وهو أصغَر من القَتَبِ وثلاثةُ أرْحُلٍ، ورَحَل البَعِيرُ يَرْحَلُهُ رَحْلاً فهو **مرحُولٌ ورَحيلٌ وارتَحَلَهُ** جعل عليه الرَّحْل، **رَحَلَهُ رَحْلَةً**: شَدَّ عليه آداته قال الأعشى:

رَحَلَتْ سُمية غُدْوَةً أجْمَالهَا غَضَى علَيْكَ، فَمَا تقُولُ بَدَالهَا؟

وإنهُ لحَسنُ **الرِّحْلَةِ** أي الرَّحْلُ للإبلِ أَعني شدَّهَا لِرِحَالِها.

يُقال: رَحَلَ الرجُلُ إذَا سَارَ، وارحلتُهُ أَنَا، ورَجُلٌ **رَحولٌ** وقومٌ **رُحَّلٌ** أي يرتَحلونَ كثيرًا، ورَجلٌ **رَحَّالٌ**، عالمٌ بِذلك مجيدٌ لَهُ، وإبِلٌ **مرَحلَّةٌ** عليها رِحالُهَا وهي أيضًا التي وُضِعت عنهَا رِحَالُهَا.

والرَحُولُ والرَحُولَةُ

الإبل: التي تَصْلُحُ أَن تُرْحَلَ وهي الرَاحِلةُ تكون للذكر والأنثى.

التَرَحُلُ والارتِحال: الانتقال وهو الرَّحْلَةُ والرُّحَلَةُ.

الرَّحْلَةُ: الارتحَالُ، الرُّحْلَةُ، الوجه الذي تأخذ فيه وتريدُهُ.

الرّحيلُ: القوي على الارتحالِ والسيرِ[1]

الرَّحْلُ: مركبٌ للبَعيرِ كالرَّحُولِ حولِ جمع أرحُلُ ورِحالٌ مَسْكَنُكَ وَمَا تستَصحِبُهُ من الأثاثِ، رحلَ البَعيرُ كَنَعَ وارتَحَلَهُ حطّ عليه الرَحْلُ فهو مرْحولٌ ورَحيلٌ وإنه لحسَنُ **الرِّحلَةِ** بالكسرِ أي **الرَّحْلِ** للإبلِ والرَحَّالُ العالم به المجيدُ **والمُرَحَّلَةُ** كُعَظَّة وإبِل عليها رِحَالُهَا والتي وضعت عنْهَا

[1] لسان العرب. ابن منظور الأنصاري الإفريقي ص121، 122، 123. المجلد السادس، دار صادر للطباعة والنشر، ص. ب 01 بيروت، لبنان.

ضِد، وارتحَلَ البَعيرُ سار ومضى، والقَوْمُ عنِ المكَانِ انتقَلُوا **كَتَرَحَّلُوا** والاسم **الرُّحْلَةُ والرِّحْلَةُ** بالضَّمِ والكسرِ و **رَاحِيلُ** أم يوسف عليه السلام، **ورِحْلَةُ** قَضيةٌ.[1]

الرحلة اصطلاحًا:

تجمع معاجم اللغة على ان الرحلة إلى الانتقال من مكان إلى آخر وبهذا المعنى يكون العديد من المشارقة والمغاربة وغيرهم من البشر قديما و حديثا قد أنجزوا رحلات لا تعد ولا تحصى، لأن الحركة و التنقل من مقتضيات الحياة وطبيعة البشر بيد أننا لا نعرف أي شيء عن كل تلك الرحلات لأنه ليس كل من ارتحل قد دوّن رحلته "**فالرحلة كتابة ملتبسة سواء على مستوى الهوية الأجناسية أو على مستوى محاورتها في سياق نظرية الأدب لأجناس أدبية أو غير أدبية** "[2]، فالرحلة جنس أدبي مثل بقية الأجناس الأدبية الأخرى لكنه انفرد عن باقي الأجناس باعتماده الوصف و المشاهدة الذين يعتبران اللبنة الأساسية لمسار الرحلة، فالرحلة تجمع بين معنيين: المعنى الأول هو الانتقال والحركة المتعارف عليهما اما الرحلة بالمعنى الثاني فهي كتابة وخطاب، هي كتابة يحكي فيها الرحالة أحداث سفره وما شاهده وعاشه مازجا ذلك بانطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم، ويجب ان يكون الرحالة ذا مستوى ثقافي يؤهله لنقل أحداث سفره إلى كتابة، أما الخطاب فهو يواكب انتقال الرحالة في أماكن متعددة و مختلفة واصفا إياها جغرافيا وعمرانيا واجتماعيا وبشريا وذاكرا ما لقيه من رجالات العلم و الأدب وما دار في مجالسهم من مناقشات، إضافة إلى ذكر الفوائد العلمية و الدينية و التاريخية و الأدبية ...، وكل ذلك يسوقه الرحالة بأساليب مختلفة يكسب الخطاب الرحلي صبغة أدبية و فنية.

---

[1] – القاموس المحيط مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، الجزء الثالث ص394، دار الجيل بيروت.

[2] – ينظر الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر (مستويات السرد) عبد الرحيم مودّن ، ط1، 2006، دار السويدي للنشر والتوزيع، ص23.

وقد عرف انجيل بُطرس **"أَدب الرَحَلات هو ما يمكن أن يُصفَ بِأَدَبِ الرَحلاَتِ الواقعية وهي الرحلة التي يقُومُ بها رَحَّالٌ إلى بلدِ العالمِ ويُدّونُ وصْفا لها يسجلُ فيه مُشَاهدَاته وانطباعَاتِهِ بدرجة من الدِّقَةِ والصِدْقِ وجمال الأسلُوب...وهناك صفتَّان عامتَانِ لا بد من توَافرِهما في أدب الرَحلاَتِ وهما:**

أولا: أن يكون من يكتب عن الرَحلات رَحَّالا بِطَبعهِ مُحِبّا للرحلات

ثانيا: أن يكتب بالأسلوب الذي يَجْعلُ وصفَهُ للرِّحْلَةِ يعكِسُ رُوحَ الرِحْلَةِ والرغبة الشديدة التي تتملكه للقيام بِهَا.[1]

- إن التعريفات السابقة تَجمع على أن الرحلة في جوهرها حركة وهذه الحركة ذات هدف وإلاّ كانت سَفْها قد يتحقق وقد لا يتحقق وسَيَتمُ في الحالتين كلتيهما اكتساب خبرات عملية وفكرية ناجمة عن المخالَطَةِ وبذلك يتم التَقابل بين الرحلةِ في اللغة والاصطلاح حيث يَجْمعُهُمَا أنهما حركة.[2]

بواعث الرحلة:

إن الفتوحات الإسلامية كان لها دور كبير في نشر الاسلام وتعاليمه ومبادئه، فالإسلام بِمجْيئهِ غيَّرَ مَجْرَى الحياة وبدأت دعوته تنتشِر وبفتْحِه للبلدان اتسّعَت رُقْعتُه وأضْحى العالم يُمثل وحده إسلامية مُتكاملة والرِّحْلةُ واحدة من الركائز التي بنيت عليها الحَضارةُ العربية الإسلامية وكما نعلمُ أنَ الرِّحلة هي الانتقال من مكان إلى آخر بغرض تحقيق هدف رَسَمَهُ الرَّحالة لنفسه من أولِ نقطة الانطلاق إلى نقطة الرُجوع وهذه الرِحلَة كانت قبل الإسلام مَحْصورَةً ومحدودةً

[1]-الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، ناصر عبد الرزاق الموافي نقلا عن إنجيل بطرس، الرحلة فلي الأدب الإنجليزي ، ص38.

[2]-ينظر المصدر نفسه، ص25.

حسب محدُودية البيئةِ آنَذَاكَ ومع مجيء الإسلامِ عرَفت تحولاً بالِغَ الأَهميةِ مما حذَا بها أن تكون فنًّا من فُنون القولِ الأدبي، وللرِّحلة دوَافع وبَواعِثَ فرضَتْهَا عليها ظرُوفُ العَصرِ نُوجِزُهَا في الآتي:

باعِثُ الحجِ:

الحجُ هو الركن الخامسِ من أركانِ الإسلام فرَضَهُ اللهُ على المسلمين في الجاهلية وأقرَّهُ الإسلام بعدَ تطْهِير الكعبة من الأصْنَامِ وهو واجب إلزامي على المسلم ما لم يَعُوقُه عائقُ ضعفِ صحة أو قلّة مَالٍ.

فكل سنة تشهدُ مكة المكرَمَة حركَةً نشيطةً، فيَتوافَدُ عليها الحُجَاجُ من كل حدْبٍ وصوْبٍ. ويلتقي العربي و العجَميُ والابيضُ والاسودُ كلهم سواسِية في مشهَدٍ تقشَعِرُّ منه الأبدانُ وإن اختلفت لهجاتُهم وألوانُهم ففي ذلك المكانِ يَجمعهم لباسٌ واحدٌ ودينٌ واحِدٌ.

وطبيعي أن الدافع إلى الحج كان أداء الفرْض في طاعةً لِلهِ ولا ننْسَى أن الدافِع الأكبر لزيارة بيتِ اللهِ هو التكفيرُ عن الذنُوبِ التي اقترفَهَا المؤمن في حقِّ نفسه وغيرِه.

فقد استمر ناصر خسرو (394هـ- 481م) يعيش معيشَةَ ترَفٍ وبطَالَة حتى سنة (437هـ/ 1045م) نَظَر له في رؤْيا شيخٌ طلبَ إليه أن يَكُف عن تلكَ الحياة وعن شُربِ الخَمرِ، فسَافرَ لتأديةِ الحَجِ وقام في هذه المناسبة برحَلاَت طويلة في الشرقِ الأدنَى.[1]

كذلك من الرحّالة الذين زاروا بيت اللهِ ودَونُوا ما شاهدُوهُ خِلال رحلتهم "**محمد السنوسي**" الذي يُصّرح بأنه كانت له رغبة شخصية في السفَرِ فيقول: "**هذا وللعبد الضعيفِ**

[1]-أدب الرحلة حسين نصّار ص19، 20، الشركة المصرية العالمية للنشر لو نجماه 1991، ط1 1991. دار نوبار الطباعة، روض الفرج، شبرا القاهرة.

المُكْتفي بالموضوع عن التَعريفِ منْذُ عقَلْتُ فضيلَةَ الإجماع وأدركتُ سِّرَ الله في التعاونِ بتجَاذُبِي الانتفاع رغْبةً تدعُوهُ في كل وقت للسياحَة للحصولِ على النظرِ الذي عهد الدينَ نَجَاحُهُ".

وقال أيضا بخصوص وسْم رحلتِه بالحجازِ: "...**وبما أن أصْلَ السفر للحجازِ كان أول غرض فيما عرضَ نسبتُ إليهِ جميعَ الكتابِ اعتبارًا لشَرَفِ ما اخْتصَّ به من المزيةِ وسمَيتُهُ الرحلة الحجازيةُ"**[1]

من كل ما سبقَ ترى أن الدافع الأساس الذي جعل الرحّالة يقومُونَ بفريضة الحجِ كان من أجْلِ التكْفير عن الذُنوبِ فتركُوا الدُنيا بما فيها، ورَحلوا عن الأهلِ والولدِ قاصدينَ بيت الله علّهُ يكون لهم المسكنَ المريحَ الذي تمحى فيه جميعُ الذنُوب والخطايا، وكان من الطبيعي أن يدوِنَ الرّحالةُ ما شاهدوهُ في مكة وما قامُوا به في مناسِكهم، ضف إلى ذلك زيارة قبر الرسُول صلى الله عليه وسلم في المدينة التي يقوم بها أكثر الحجاجِ وإن لم تكن فرضًا عَليهم.

باعث التجارة:

جاء في القرآن الكريم أن قبيلة قريش كانت لها رحلتان رحلة الشتاء ورحلة الصيف[2]، والباحثون مُجمعون على أن هذه الرحلتين كانتا للتجارة، ذلك أن أهل مكة كانوا تجارًا من الدرجة الأولى، وكانت قوافلهم تنقل المتاجرَ من اليمن إلى الشام وتحمل البضائع من الشام إلى اليمن، وقد تكون تجارة مكة بالذّاتِ قد تَدنت كثيرًا، ولكن الفتوحات الإسلامية جاءت بالجديد بالنسبة إلى رقاع أخرى امتدّت الفتوح حتى ضمت وادي السند وما وراء النهر شرقا

[1]-الرحلة الحجازية محمد السنوسي، تحقيق علي الشنّوفي مبرز ودكتور دولة في الأداب أستاذ محاضر بكلية أداب بتونس. نشر الشركة التونسية للتوزيع 1396هـ/ 1976م. الجزء الأول، ص26، 27، دط.

[2]- من سورة قريش الآية 2.

والأندلس غربا واستتبع ذلك أن أصبحت رقعة الاتجارِ وتبادلِ السلع والمتاجر تسهل هذه المنطقة الواسعة، والتاجر النشيط صَار بإمكانه أن ينتقل بين قطر وآخر ومدينة وأخرى يشتري ويبيع دون أن يُعيقه عائق، وبذلك انفتحت أمام العربي والمسلم مجالات واسعة كانت من قبل مقفلة. ومعنى هذا أن الرحلة في سبيل التجارة اتسّعت آفاقها وزادت إمكانياتها. وكان هؤلاء التُّجار يمرون بالبلدِ ويتعرفون إلى أهلهِ وعاداتهم[1].

تجارة البخور:

كانت مصر و بين النهرين لهما علاقات تجارية قوية مع بلاد العرب الجنوبية وخاصّة مع اليمن، منذ أزمنة متغلغلة في القدم واليمن كانت نقطة الاتصال بين الهند ومصر مثلا منذ حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد، إن لم يكن قبل ذلك والذي كان يجذب التُجار المصريين وغيرهم إلى اليمن نفسها هو البخور، ذلك أن البخور كان يُستعمل في كل هيكل ومعبد في العالم القديم فكان وجودُهُ ضروريا. وحضر موت هي البلاد الوحيدة في العالم القديم التي كانت تنتجُهُ، فكان لزَامًا على الناس أن يحصلُوا عليها منها وكانت اليمن مركز هذه التجارة ومنها تُنقل إما بطريق البحرِ الأحمر أو بطريق الحجاز ومن ثم توزع في أقطار العالم القديم مصر والعراق وسورية وآسيا الصغرى والعالم اليوناني وإيطاليا وغيرها[2]

والرّحالة (ماركو بولُو) في طليعة الأوروبيين الذين زاروا الشرق وعاشُوا في أجزائه ورحلاته ولاشك فيها فائدة ومتعة وطرافة وما ركوُ بُولُو زار هرمز في أواخر القرن الثالث عشر، ويصف هذه المدينة في قوله: **"يأْتِيها التجّار من الهند وسُفنُهم مُحَمّله بالأفاوية والحجارة الثمينة واللؤلؤ والأقمشة الحريرية والمذهبة والعاج وغير ذلك من المتاجر هذه كلّها يبتاعُها تجّار**

[1]-الجغرافيا والرحلات عند العرب، نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1980م، ط1 بيروت 1962م، ص 137.

[2]-ينظر الجغرافيا و الرحلات عند العرب، ص201.

هرمز الذين يحملون بدورهم إلى أسواق الدنيا إنما في الواقع مدينة عظيمة المتجر. وثمّة كثير من المدن والقرى التي تخضع لها وهي العاصمة...المدينة حارة جدًّا"[1]

من خلال قول ما ركوبولو نلاحظ أن هرمز كانت تُمثل مركزًا تجاريًّا يأتيه التجار من الهند ومن بلاد أخرى يتبادلون السلع فيما بينهم والذي زادَ من عظمة هذه المدينة أنها كانت تُنقل لها السِلع الثمينة اللؤلؤ وما شابهه دلالة على أنها كانت محل أنظارِ التجارِ من العالم يتوافدون عليها كلمّا دعتِ الضرورة إلى ذلك.

من كل ما سبق نلاحظ أن معظم الرحّالة التجار لم يكن هدفهم من الرحلة تحميل بضائعهم والمشاهرةِ بها بل منهم من كان داعية إلى دين الله الأوحد ونقل رسالةِ رسُوله الأعظم فكانت التجارة الباعث الأكبر الذي أخذ حصة الأسد وكان السبب المباشر في توحيد المسلمين على كلمة الحقِّ، كما نعلم أن المسلمون عند فتحهم للدولة الإسلامية لم ينتشر فيها الإسلام بصورتهِ الكاملة، فالرحّالة لعبَ دورَ التاجر الذي يُسافرُ من بلد إلى آخر من أجل الكسب الحلالِ وفي نفس الوقت كان حلقة وصل بين المسلمين يدعوهم إلى الدخول في دين التوحيد.

باعث طلب العلمِ:

طلب العلمِ فريضة على كل مسلم ومسلمة وأن ذلك واجب ديني فمن واجب كل مسلم أن يطلب المعرفة وأن يصلَ إليها وينالها أيًّا كان مصدرها ومكان تواجُدها، فقد رغب الرسول صلى الله عليه وسلم في الرحلةِ إلى طلبِ العلم في قوله: **"أطلبوا العلم ولو في الصِن"** وقد كان طالبُ العلم يتم تعليمهُ في بلاده ثم يسافرا بعيدًا وينزل بإحدَى حواضرِ العالم العربي ويُجالسُ من اشتهرَ بها من علماءِ عصرهِ ويحضرُ دُرُوسهم ويسعى في الأخذِ عنهم ونيلِ إجازاتهم،

[1] ـ ينظر الجغرافيا و الرحلات عند العرب، ص223.

وتكلم ابن خلدون عن الرحلة في طلب العلم فقال: "**الرحلة في طلب العلوم ولقاءِ المشيخةِ مزيد كمال من التعلّم والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلُون به من المذاهبِ والفضائلِ تارةً علمًا وتعليمًا وإلقاءً وتارةً محاكاة وتلقينًا بالمباشرةِ إلا أن حصول الملكاتِ المباشرةِ والتلقين أشدّ استحكامًا وأقوى روحًا، فعلَى قدرِ كثرةِ الشيوخِ يكون حصُول الملكةِ ورُسوخُها**"[1]

الرحلة في طلب الحديث:

لما كان الحديث النبوي هو المصدر الثاني للإسلام وكان منه بهذه المثابة فقد أعطاه العلماء غايةَ اهتمامهم، وبذَلُوا من أجلِ الحديثِ وأسانيدهِ كل ما في وسعهم، حتى رحلُوا المسافات البعيدة على بُعدِ الشَقَةِ وعظمِ المشقةِ طلبًا للحديثِ وبحثا عن أسانيد الأحاديث بل عن إسناد الحديث الواحد امتثالاً لأمرِ الله تعالى: ﴿**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**﴾[2].

وقد كانت الرحلة في طلب الحديث من لوازم طريقة المحدّثين ومنهجهم في التحصل العلمي قال "**يحي بن معين" أربعة لا تُؤْنَسُ منهم رشْدًا حارِسُ الدربِ ومُنادي القاضي وابن المحدِّث ورجلٌ يكتب في بلدهِ ولا يرْحلُ في طلب الحديث**"[3].

نلاحظ أن المحدّثين قد أسهموا بنصيب وافر في تثبيت الرحلةِ كأساس علمي ضروري ولم يقتصر دورهم على هذا فحسب بل أسهموا في إنضاجِ أدب الرحلة بإنتاج نماذج طيبة منه وكان

---

[1]-المقدمة تاريخ العلاّمة ابن خلدون ص1044. دار الكتاب اللبناني ومدرسة بيروت، لبنان.

[2]- سورة التوبة ، الأية 122.

[1]- ينظر الرحلة في طلب الحديث للخطب البغدادي حققه وعلق عليه نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط1 1975م، ص 71، 72،

الدافع لإنتاجها رغبتهم في بيان مدَى ما كانوا يُعانون في سبيل جمع الحديث الشريف والرحلة في طلب الحديث ليست بالأمر السهل، فقد كانت رحلة المحدثين تستغرق شهورًا فقط لسماع حديث واحد فقد تكبَّد الرّواة مشّقة السفر وتحملوا الصعاب من أجل التثبت والتأكد من صحةِ الحديث.

ومن فائدة الرحلة في طلب العلم أنها الجزء المتمّم للتفكير الفكري والعلمي للرّحالة فالتنقل بين المدن والأقطار والأوطان يُثري خبرة الطالب، كما أن احتكاك الطالب بالشيوخ يكوّن شخصيتهُ العلمية الخاصّة زيادة على الاستفادة الكبيرة حين تتنوع منابعُ المعرفة وتختلفُ مصادرُها. ويرى ابن خلدون أن الرحلة في طلب العلم تتيحُ للطالبِ **"لقاء أهلِ العلوم وتعدُّدِ المشايخِ يُفيدُ تمييز المصطلحات ما يراه من اختلاف طرقهم فيها"**[1]

إن الرحلة في طلب الحديث قد أسهمت في إثراء الرحلة بمختلف العلوم خاصّة علم الحديث الذي كان ينقل مشافهةً من خلال احتكاك الطلبة بالمشايخ وهذا الإثراء جعل الرحلة تطغى عليها الصبغة العلمية.

رحلة تشارلز داروين حول العالم:

الرحلة التي قام بها (داروين) حول العالم لم تكن بدافع التَجوُّلِ فمن خلال مشاهدته ومقارنته للعنصر البشري وعلاقته بالآخرين تولدت في ذهنية **"نظرية التطور"** أو كما سمّاها نظرية الانتخاب الطبيعي لعملية التطور الحيوي للكائنات الحيّة.

ومع أن داروين لم يكن متخصصا في الجيولوجيا إلاّ أنه اهتم بالظواهر الجيولوجية وحاول تفسيرها وفي هذا الشأن كتب يقول: **"إني لمدين لرحلتي حول العالم بأولِ مرانة أو تدريب**

[1]-المقدمة تاريخ العلامة ابن خلدون ص 1045.

عملي لذهني، ولقد كانت للتحركات الجيولوجية في كل الأماكن التي زرتها أكبر الفضل في ذلك المَجال إنّ أي شيء لا يمكن أن يبدو أكثر مدعاة لليأس من الفوضى التي تبدُو عليها الصخور التي تتكون منها منطقة ما عندما يرونها المرء لأول مرةٍ ولكن بالتسجيل الدقيق للطبقات ولطبيعة الصخر وما بها من حفريات في أماكن متعددة من المنطقة مع استمرار التعليل والتنبؤ في كل حالة بما يحتمل مُصادقة منها في أماكن أخرى سُرعان ما يبدأ الضوء في الإشراق على المنطقة وتصبحُ الفوضى أبدعَ نظامٍ وأجمل تركيبٍ"[1]

إن أهمية الرحلة التي قام بها هذا العالم في بلورة هذا الكشف العلمي الذي كان له التأثير العظيم في توجيه الفكر الإنساني نحو الوقوف على نشوء الإنسان وارتقائه وطبيعة التاريخ الطبيعي للكائنات الحيّة على حدّ سواء الأمر الذي جعل مؤرخو العلم يصفون النصف الثاني من القرن التاسع عشر بأنه عصر داروين والداروينية.[2]

ولم تقتصر رحلة العرب على البحر، بل قامُوا برحلات بريّة أيضا ولعل من أهم الشخصيات التي تردّد ذكرها في المصادر التاريخية سُلام الترجمان فقد ذكره القزويني فقال: "**إن سلامًا الترجمان أمرهُ الخليفة العباسي الواثق بالله بالرّحيل ليتفقد السّد الذي بناهُ الأسكندر ذو القرنين وذلك تنفيذًا لرؤيا رآها في المنام مؤداها أنه رأى السد الذي بناهُ الاسكندر والذي يقع بين بلاد المسلمين وبين يأجوج ومأجوج مفتوحًا فأخافته الرؤيا وسار سلام من مدينة تسَرْمَن رأى ومعه خمسون رجلا ومائتَا بغل تحمل الزّادَ والماء** ويقول يا قوت: "**وقد استجاب حاكم أرمينيا لخطابِ التوصية مهمته الخليفة إليه مع سلام ليقضي**

---

[1]-أدب الرحلات حسين محمد فهيم (دراسة تحليلية من منظور أنتوغرافي) ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكريت، ص35.

[2]-ينظر المصدر نفسه، ص36.

له حوائجهُ ويسهّل حاجته فزوده حاكم أرمينيا بدوره بخطاب يرجُو فيه حاكم إقليم السرير أن يكون مَبعوث الخليفة العباسي موضع عنايته ورعايته."[1]

إن الرحلة كانت متنوعة فلم تقتصر على البحرِ والجوّ بل جاءت كذلك برية تخدم غرض صاحبها وهو الاستجابة لمطالب شخصية أو جماعية فرضتها طبيعة العصر.

الرغبة الشخصية:

طبيعي أن يقوم أشخاص عديدون بالسفّر من أجل حب السفرِ وتحلّيهم بروح المغامرة والمجازفةِ، ورغبتهم في التمتّع بالحياة وبمجالي الجمال في كل مكان فيقومون بالسفر بمحض إرادتهم دون دافع خارجي عن أنفسهم والمثال الواضح عند العرب لهذا النوع من الرحّالة هو ابن بطوطة الذي وصفه **زكي محمد حسن بقوله: "هُوَ أعظم الرحّالة المسلمين قاطبة وأكثرهم طوّافًا في الآفاقِ وأوفرهم نشاطًا واستيعابًا للأخبار وأشدّهم عناية بالتحدّثِ عن الحالة الاجتماعية في البلاد التي تجوّل فيها...ولكن حديث رحلاته الطويلة...يشهد بأن ابن بطوطة كان من المغامرين الذين لا يقّر لهم قرار ومن الذين يدفعهم حبُ الاستطلاع والرغبة في الاستمتاع بالحياة إلى أن يركبُوا الصعب من الأمور"** ويشهد لهذا رحلاته غير أني أرى خير لا شاهد لذلك أيضا قولُه الذي نفذه **"من عادتي في سفري أن لا أعود على طريق سلكتها ما أمكنني ذلك"**[2].

[1]-الرحلة والرّحالة المسلمون أحمد رمضان أحمد، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع. د ط، ص 39-40.

[2]-رحلة ابن بطوطة ، ص 191.

تسرية الحزن:

كان الشاعر العربي منذ الجاهلية إذا اشتد به الكرب وضاقت منه النفس يمتطي ناقته ويضرب في الصحراء بغية التخفّف من الحزن والخلوص إلى الفرج وبقيت تلك عادية في الإسلام قال أمّية بن أبي عائذ الهذلي:

فَسَلْ الهُمُومَ بعيرانة مُوَاشكة الرّجْعِ بعد النَقّالِ.

وكذلك فعل ابن جُبير عندما توفيت زوجتُه وعظم حزنه فلم يجد من يفرّج عنه غير الشعر والرحلة. أما الشعر فقد نظم منه ديوانا لعله أول ديوان عربي في رثاء الزوجة وسمّاهُ **نتيجة وجدِ الجوانحِ في تأبين القرين الصالح"** أما الرحلة فكانت الثالثة إلى المشرق وتوفي فيها بالإسكندرية.[1]

التهنئة بأمرٍ محبوبٍ:

قيل إن السبب الذي جعل ابن جبير يقوم برحلته الثانية هو تهنئة القائد صلاح الدين لاستعادة القديس من أيدي الصليبين[2].

الرحلة من أجل المعافاة:

قديما كان الإنسان يعيش في أحضان الطبيعة فإذ اشتكى من مرض تناول الأعشاب فيزول مرضُه بسرعة، أما في العصر الحديث وبسبب تمركز معظم الناس في المدن وكثرة المشاكل والضجيج الذي أصبح يسيطرُ على حياة البشرِ، أن معظم المرضى يشتكون من الأمراض النفسية والتي ترجع إلى الأسباب السالفة الذكر فينصحُ الأطباء مرضاهم للقيام برحلة وهو

[1]-أدب الرحلة حسين نصّار مكتبة لبنان. الشركة المصرية العالمية النشر لو نجمان 1991 الطبعة الأولى 1991، ص 46.

[2]- المصدر نفسه، ص 46.

الانتقال من موطنهم إلى مكان آخر يكون أكثر هدوء لاستعادةِ عافيتهم ونجد مثال ذلك عند عبد الرحمن بك سامي فيقول: "**إنني في أثناء الصيف الماضي بعد منحي الرخصة من الحكومة السّنية قصدت الأقطار السُورية حسبَ مَشورة الأطباء لتغيير الهواء وترويح النفسي إثر ما ألم بي من انحرافِ الصّحة...**"[1]

- الرحلة و أن تعددت أسبابها ودوافعها الشخصية تسيطر عليها الحركة التي هي الانتقال من
- مكان إلى مكان آخر بُغية تغيير الجو وهذا الانتقال فيه من الايجابية التي تجعلُ الإنسان في حركة دائمة يكتسبُ من خلالها مهارات ويستعيد نشاطه ويشعر بالانفتاح حول العالم.

الرحلات: أهميتها وعلاقتها بالعلوم وبالجغرافيا خاصّة:

إنّ فن الرحلات يتعرض لجميع نواحي الحياة أو يكاد إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم الجغرافي والمؤرخ وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب...فالرحلات منابع ثرة لمختلف العلوم وهي بمجموعها سجّل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة، فالرّحالة وهو يطوي الأرض أثناء رحلته يغطي في نفس الوقت ملاحظة مظاهر مختلفة في الحياة يشاهدها أو يسمعها وينقلها في رحلته، ولا شك أن الرحالون يختلفون فيها بينهم في درجة ملاحظتهم ودرجة تفكيرهم ومهما يكن من اختلاف وتباين بين الرحلة، فالرحلات قيمتان عظيمتان، قيمة علمية وأخرى أدبية[2]:

القيمة العلمية:

فتكون في معظم ما تحتويه هذه الرحلات من معارف جغرافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية...إلخ مما يدونه الرّحالة تدوين المعاني في غالب الأحيان من جرّاء اتصاله المباشر

---

[1]- أدب الرحلة، حسين نصّار ، ص47.

[2]- ينظر أدب الرحلة عند العرب حسني محمود حسين ، ط2 1973، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، ص6،7

بالطبيعة وبالناس خلال رحلته إن الرّحالة يمثل دور الناقل لهذه الظاهرات لبعضها بين أيدي الجغرافيين أو المؤرخين أو علماء الاجتماع كل بحسب تخصصّه فهو عندما يصّف الممالك والبلدان والأسقاع والأقاليم والمدن والمسالك ويتحدث عن المناخ والطبيعة وعن ظاهرة توزيع السكان مما يعتبر من صميم الدراسات الجغرافية فيعتبر من هذه الناحية مرجعا أساسًا ومُعينًا كبيرا للعالم الجغرافي ومثل ذلك يمكن أن يقال في الرحلة بالنسبة لباقي العلوم ومن المعروف أن بعض المؤرخين والجغرافيين العرب يعتبرون رحّالين "**المقدسي والادريسي**" إذ كانوا يجمعون موّاد موضوعاتهم عن طريق الرحلة وهذه العلوم المختلفة مرّت بعدة مراحل قبل أن تصل إلى ما هي عليه اليوم من دقةٍ وتحديد وضبط وقبل أن تتخذ صفة العلم القائم بذاته بفضل تقدّم العقل البشري وأدواته العلمية فعلم الجغرافيا مثلا اعتمد قديما الأسلوب الوصفي الأدبي كما كان يستقي مواده من مصادر الأدب والتاريخ وعلم الاجتماع، الاقتصاد والدين فمزجوا بين هذه العلوم جميعا وربما مزجوا بينها وبين الخرافاتِ والأساطير فأتت كتبهم محتوية على كل طريف ممتعٍ[1].

القيمة الأدبية:

وتتجّلى في الرحلات فيما تعرضه في موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب وترقى بها إلى مستوى الخيال الفنّي وبالرغم ما يتّسم به أدب الرّحلات من تنوع في الأسلوب كالسرد القصصي، الحوار والوصف فإن أبرز ما يميّزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى مما حذا بالدكتور **شوقي ضيف** إلى اعتبار أدب الرحلات عند العرب "**خيرٌ ردٌّ على التهمة التي طالما أتّهم بها الأدب العربي تُهمَة قُصوره عن فن القصّة**" وقد أفاد أدب الرحلات من غنى موضوعاته في صرفِ أصحابه في غالب

[1]- ينظر أدب الرحل عند العرب ، ص 7-8.

الأحيان عن اللّهو والعبث اللّفظي والتّكلف في تزويق العبارة إيثار للتعبير السهل المؤدي للغرض لنضجِه بِغنى تجربة صاحبه مما يفتقده كثير من الأدباء والمحترفين في بعض عصورنا الأدبية ولا يعني هذا أن الأسلوب في هذا الأدب قد تخلّص من كل الصفات والعيوب الأسلوبية الأخرى فهو يعتمد السجع أحيانا: "**فلقد أثار هذا الأدب اهتماما بالغًا بسبب تنّوعه وغنى مادته فهو تارة علمي وتارة شعبي وهو طورًا واقعي وأسطوري على السواء تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة لذا فهو يقدم لنا مادة دسمة متعددة الجوانب لا يوجد مثيل لها في أدب أي شعب معاصر للعرب...**"[1]

هذا يعني أن أدب الرحلات نستطيع أن نتعامل معه من عدة جوانب مختلفة كالجانب التاريخي، الجانب الاجتماعي والانثروبولوجي...إلخ.

هدفه نقل أحداث شاهدها الرّحالة كتواصل فكري وحضاري بين مختلف الأجيال ونجد الرّحالة قد زاوج بين مكونات الأسلوب من سرد ووصف وحوار جعلت أسلوب الرحلة يرقى إلى مصَافِ الأدب.

السرد:

وهو من المميزات التي تقوم عليها الرحلة فأي كتابة رحلية لا يمكن أن تستغني عنه ما دامت تنقل إلى المتلقي أحداثًا وأفعالاً قام بها الرّحالة ابتداءً من نقطة الانطلاق ثم العودة إليها "**ولَعَل جسَد الرّحلة يتمثل في السرد الذي يعطي للرّحلة شرعيتها الأدبية**"[2]

---

[1]- ينظر أدب الرحل عند العرب ، ص 8-9.

[2]-جمالية المشهد في أدب الرحلة الجزائري الحديث، عيسى بخيتي، مذكرة ماجستير جامعة تلمسان. إشراف محمد مرتاض 2011م، ص77.

فالرّحلة تقوم على الحركة التي قد تشترك فيها جماعة من الناس أو قد يتفرد فيها الرّحالة بنفسه فهذه الحركة يتحكم فيها عنصرانِ مهمّان هما عنصر الزمان وعنصر المكان، والرّحالة يسردُ لنا كل وقائعَ الرّحلة فيذكر كل حادثة مرّت عليه في زمانها والسردُ في النّص الرّحلي هو سردٌ واقعي قائم على المشاهدة والمعاينة والملاحظة وهو ليس من تأويل الخيال حتى لا تعتبر حوادث الرّحلة مجرّد خرافات وأساطير والسردُ هو تلكَ الإعادة لمسيرة الرّحلة والذي يبدأ مع الرّحلة وينتهي بنهايتها "**لأن العملية السردية هو تحويل الأحداث والوقائع من تجربة معيشة إلى سرد مكتوبٍ من تحريفات وإضافات وإهمال وتقريرية**"[1]

فالسرد هو النقل المباشر للأحداث والوقائع التي عاشها الرّحالة وتحليلها ومعالجة أوضاعها. فلغة السردِ نجدها عند معظم الرّحالة لغة بسيطة تخدم غرض الرحلة كابن بطوطة بالرغم من أنه لم يقم على كتابة رحلته بنفسه إلاّ أن سرد الأحداث جاء بسيطا بساطة شخصيته الذي حاول من خلال رحلته نقل حقائق ومشاهدَ عايشها بنفسه ونفس الشيء بالنسبة لرفاعة الطهطاوي الذي انبهر بباريس فجاء سردهُ للحقائق بسيطا على غُموض فيه، كذلك نفس الشيء عند ابن جُبير، فكل رحّالة من هؤلاء وغيرهم كان يقوم مقام الساردِ الذي يقفُ شاهدًا على أحداث وأفعال عايشها.

الوصف:

يطغى الوصف على النّص الرّحلي فكل رحلة تخلو من الوصف قد لا ترتقي إلى مصَافِ الأدب لأن الوصف هو المحرك الأساسي وهو الذي يشعلُ لهيب الإحساس عند الرّحالة عند

[1]-جمالية المشهد في أدب الرحلة الجزائري الحديث ، ص 78.

كتابته للرّحلة يُزاوجُ بين السردِ الذي يكون بالحديث عن الفعل في الزمان والوصف الذي يشمل المكان والأشخاص والأشياء "**فالسارِدُ في الرحلة إذن يصف ليسرد ويسردُ ليصف**"[1].

والوصف ليس ثابتا في كل الحالات قد يتراوح من شخص إلى آخر تتحكّم فيه طبيعة العصر وطبيعة الحالة النفسية للرّحالة كابن خلدون الذي عاش في عصر كثرت فيه الصراعات والحروب فتجدُ ملكة الوصف قد خمدت عنده، وذلك راجع لطبيعة حالته النفسية فهو لم يصف لنا كل المشاهد والأحداث التي عايشها ووصفه اقتصر فقط على وصف القاهرة فيقول: "**...رأيتُ حضرة الدنيا وبستان العالم، و معشر الأمم، ومدرج الذُرِّ من البشر وإيوان الإسلام وكرسي الملك تلوح القصور والأواوين في جوّهِ وتزهرُ الخوانك والمدارس بآفاقِه وتُضيئ البُدورُ والكواكبُ من علمائه وقد مثلَ بشاطئ نهر النيل نهر الجنّة ومدفع مياه السماء يسقيهم النهَل والعَلَل سَيحُه ويُجبي إليهم الثمرات...ومازلنا نحدّث عن هذا البلد وبُعدَ مداه في العمرانِ واتساع الأحوال**"[2]

فهو يَحُج بيت الله ولا يذكر لنا سوَى طريق الذهاب والعودة فلم يصف لنا مكة المكرمة أو أي مشعر حرام بالرغم من قدسية وعظمة المكان فأي إنسان زارَ الكعبة إلاّ ووصفها ليشوق الناس زيارتها والتبرك بها، ومهما يكن سيظل الوصف حتى ولو لم يرق إلى المستوى المطلوب سيبقى الصورة الحية التي تعكس شخصيته الرّحالة وشخصية المجتمع على وجه العموم.

---

[2]-المصدر السابق، ص78.

[1]-التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا. عبد الرحمن ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني بيروت، لبنان دار الكتاب المصري القاهرة ج م ع، ص 264- 265.

الاستطراد:

إضافة إلى السرد والوصف اللذّين يشكلان العصب المحرك للرّحلة هناك عنصرا آخر لا يقل أهمية عنهما هو الاستطراد الذي لا يخلو النّص الرّحلي منه كونه المادة الدسمة التي تنبني عليها موضوعات الرّحلة، فالرّحالة لا يذكر لنا حادثة شاهدها أو عادة أثارت اعجابة أو تساؤله بل نراه يندفع وراءها فيشرحها ويذكر أسبابها وهذا بلا شك راجع لثقافته ومعارفه المتنوعة التي امتلكها من خلال احتكاكه مع أناس آخرين جمعته بهم الرّحالة، فالاستطراد يزيد من جمالية الرحلة حتى لا تبدو جافة "**وقد اعتبر في بعض العهود الأدبية مظهرًا من مظاهر الشمول الثقافي**"[1]

فهو حلقة وصل بين أحداث كانت في الماضي وأخرى موجودة في الحاضر يُحاول من خلاله الرّحالة الربط بين هذه الأحداث حتى لا يفصل الماضي عن الحاضر فنجد ابن خلدون عندما تحدث في رحلته عن يتمورلنك ومفاوضته له فذكر لنا شخصية تيمور بأنه يصعب التفاهم والتفاوض معه لكن بذكاء وحنكة ابن خلدون استطاع أن يحّلل شخصية الرجل فعرف كيف يتعامل معه وبالتالي وصَل إلى الهدف الذي رسمَه وهو التفاوض معه حتى لا يُغير على مصر ونفس الشيء بالنسبة لابن جبير فعند زيارته للمسجد الأموي بدمشق شاهد أناس يقومون بطقوس دينية منافية لتعاليم الدين الإسلامي فاستغرب لهذا الأمر فهو لم يقف عند هذه الحادثة بل راح يبحثُ عن سبب ممارسة هذه الطقوس لأنها لا تخدم تعاليم الدين الإسلامي.

[1]- جمالية المشهد في ادب الرحلة الجزائري الحديث، عيسى بخيتي، ص82.

الهيكل العام للرّحلة:

إن القيمة الأدبية لكتب الرحلات تتجلى فيما تعرض فيه موادّها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب وترقى بها إلى مستوى الخيال الفنّي وبرغم ما يتّسم به أدب الرّحلات من تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف، فإن أبرز ما يميّزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى.

ولأن معظم الدراسيين لم يلتفتوا إلى البناء الفني والقصصي لأدب الرحلات بشكل كبير فقد جاءت الدراسة هنا لتحاول الوقوف على حقيقة هذا الجانب فلكل رحلة بداية ونهاية وقد التزم معظم الرّحالة محاور البناء الفنّي الأساسية:

المقدمة:

حيث تبدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله ومن ذلك قول ابن الخطيب:[1] **نحمد الله حمدٌ معترف بحقّه ونشكرهُ على عوائدِ فضله ورفقه الذي جعل لنا الأرض ذلولا نمشي في مناكبها ونأكل من رزقه ونُصلّي على سيدنا ومولانا محمد خيرتهِ من خلقه في حين افتتح أبو عصيدة البجائي رحلته بقصيدة شعرية أشاد فيها بصديقه المِشدالي ومكانته العلمية ثم بالتحميد حيث يقول: "الحمد لله الذي فتح بمفاتيح العقُول أقفال الافهام ورفع حُجُبَ السرائِر حتى ظَهرَ ما كان محجوبًا في صُدور أهلِ المحبّةِ والغرام**....أما ابن جبير فرحلته لا تخْلو من مثل هذه المقدمة فهي موجزة سريعة حدّد فيها أسباب الرّحلة ودوافعها وزمن الخروج ومكانه حيث ابتدأ بتقيدها يوم الجمعة الموفي ثلاثين لشهر

[1]-أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، نوال عبد الرحمن الشوابكة تقديم صلاح جرار، دار المأمون للنشر والتوزيع عمّان- الأردن، ص 296- 297.

شوال سنة ثمانٍ وسبعين وخمس مئة على متنِ البحر بمقابلة جبل شُلَيَرْ...للنيّة الحجازية المباركة قرنها الله بالتيسير والتسهيل.

العرض:

يأتي بعد التمهيد حيث توّظف الرحلات كل الأساليب والتعابير لإبراز الموضوع أو الهدفِ الذي من أجله كانت الرحلات، فالموضوعات وكل ما صادفه الرّحالة من المشاهدات تصوّر الصلة القوية بين عناصر البناء الفنّي فتأتي الرحلة أكثر قوة وترابطًا[1]

الخاتمة:

ويختم معظم الرحّالة رحلاتهم بالحمدِ والصلاة على محمد وآله وصحبه ويحدّد بعضهم الزمن الذي استغرقته رحلته من لحظة الخروج إلى لحظة الإيّاب، حيث يُنهي ابن جبير رحلته بقوله: "**فكانت مدة مقامنا من لدن خروجنا من غرناطة إلى وقت إيابنا هذا عامين كاملين وثلاثة أشهر ونصفٍ والحمد لله رب العالمين**" أما العبدري فيختم رحلته النثرية ثم يحمدُ الله ويصلّي على محمد وآله وصحبه في حين ختم البجائي رحلته بانتظار جوابٍ غير عادي في رسالته من أبيات شعرية يوجهها إلى البجائي ويصلي الرّحالة على النبي محمد وآله وصحبه.

ومما سبق يتضح أن البناء الفنّي في جميع الرحلات يظهر بصورة نمطية تتبّع خط سير الرحلة من انطلاقها إلى لحظة العودة بحيث يُكسبُ النّص مجالاً واسعًا لتوظيف العناصر الأدبية فعناصر البناء الفنّي ترتبط بزمنية الخطاب وتسعى إلى مواكبة الرحلة من البداية إلى النهاية[2]

[1]-أدب الرحلات المغربية الأندلسية، ص298.

[2]- المصدر نفسه، ص 298-299.

نلاحظ ان معظم الرحالة ساروا على منهج واحد في كتابة رحلتهم فأي رحلة لا تخلوا من مقدمة باعتبارها تركز على تاريخ انطلاق الرحلة و مكان الخروج ورفيق السفر إذا وجد، ويكون العرض محتويا لتفاصيل الرحلة بما فيها وصف الأماكن والشخصيات والأحداث التي جرت أو شاهدها الرحالة وتأتي خاتمة لتعطينا انطباع الرحالة حول الرحلة وتاريخ رجوعه إلى موطنه الأصلي.

روّاد الرحلة:

الرحالة المسلمون:

يزخر تراثنا العربي بثلّة من النوابغ والعمالقة الذين كانت لهم إسهامات كثيرة في إثراء المكتبة العربية بكتاباتهم وآثارهم الخالدة التي مازالت باقية إلى اليوم ، ومن هؤلاء العمالقة الرحالة المسلمون الذين كانت رحلاتهم حلقة وصل بين الشعب و القبائل الذين عملوا على نشر الدين الإسلامي وتقوية أواصره فمن خلال تصفحنا لبعض نصوص الرحلات تعرفنا على البلدان و الشعوب و عاداتهم وتقاليدهم من خلال وصف الرحالة لهم، فالرحلة كانت سببا رئيسا في تقوية العلاقات بين الأفراد والجماعات من خلال التلاقح الثقافي و الفكري الذي أدى إلى تواصل حضاري شهدته البلدان الإسلامية على وجه الخصوص .

المقدسي: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر من بيت المقدس بفلسطين وإليه يُنْسب وهو رأي في بعض المستشرقين أعظم الجغرافيين عند العرب في جميع عصورهم، عاش في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي وجذبته الكتابة في الجغرافية فضرب في العالم الإسلام وتنقل في ربُوعهِ ثم أخذ يدون أهذا الكتاب "**أحسن التقاسيم**" مُصورا أحوالهُ الجغرافية والعمرانية مهتّما

اهتمامًا شديدًا بالحديث عن اختلاف أهل البلدان الإسلامية في كلامهم وأصواتهم وألوانهم ومذاهبهم وأوزانهم وطعامهم وشرابهم[1]

الإدريسي: هو أبو عبد الله بن محمد الحبر جغرافي في بلاد المغرب والأندلس وهو من سلالة الرسول عليه الصلاة والسلام ومن بيت بني حمود الذين تَملكوا بعض بلدان الأندلس في القرن الحادي عشر ولد في سنة (**493هـ/1099م**) وتعلّم في قرطبة ثم رحل البلاد في الأندلس والمغرب ومصر والشام وآسيا الصغرى وانتهى به المطاف إلى صقلية وأتصّل الإدريسي بأمير صقلية فأعجب كل منهما بصاحبه وقد عُرف فيه رُوجر قدرته البارعة على رسم الخرائط ومهارته في علم الجغرافية فطلب إليه أن يؤلف كتابًا له فلم يهجو على التأليف مباشرة بل انقد طائفة من الرّحالة إلى بلدان متفرقة ليأتوهُ بالمعلومات فكتبوا له تقارير بما شاهدوهُ أضافها إلى ما شاهدهُ بنفسهِ في البلدانِ وجمع أكثر ما كُتب في هذا العلم واتخذ من كل ذلك مادة لتأليف كتابه الذي سمّاهُ "**نزهةُ المشتاق في اختراقِ الأفاقِ**" كما يُسمَى "**بكتاب رُوجر**" لأنه أُلِّف من أجلهِ وقد نقل إلى اللاّتينية في القرن السادس عشر.[2]

المسعودي: هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علّي المسعودي يرتفع نسبة إلى الصحابي عبد الله بن مسعود ولد ببغداد وتوفي في الفسطاط بمصر سنة (346هـ/957م) وكان واسِع الإطّلاع حيث يمكن من الإحاطة التامة بكل التراث الأدبي لعصره وبمختلف نواحي العلوم. قام برحلاتٍ واسعة زارَ فيها أقطارًا عديدة مثل: بلاد فارس سنة 303هـ والهند سنة 304هـ وسرنديب ورحل إلى الصين وزار سواحل إفريقيا الشرقية...إلخ وهكذا أمضى أكثر من أربعين عامًا في رحلاتٍ متقطعة وترك المسعودي كتبا عديدة من أبرزها: مروج الذهب، وأخبارُ الزمان

[1]-الرحلات، شوقي ضيف، الطبعة الرابعة، دار المعارف، النيل، القاهرة، ص17.

[1]- المرجع نفسه، ص21.

ومن أبادهُ الحدثان ويقع في ثلاثين جزءًا، التنبيه والإشراف أخبارُ الحوارج، أخبار الأمم من العرب والعجم، المقالات في أصول الديانات، مسر الحياة والسياحة المدنية...إلخ وقد طغت شهرة المسعودي ككاتب على شهرته كرحالة ويوصف بأنه كان معتزليّا.[1]

ناصر خسرو: ولد ناصر خسرو في قباديان ببلاد فارس سنة **394**هـ من أسرة متوسطة الحال، وشغل منصبا كبيرًا في الدولتين الغزنوية والسلجوقية وكان واسع الإطلاّع قرأ في الديانات المختلفة وكادَ يصلُ إلى درجة الإلحادِ، وظهر ذلك في شعره فرمَاهُ بعض خصومه بالكفر وحارت نفسه فانصرف إلى الخمر شهرًا كاملا حتى رأى في منامه ذاتَ ليلةٍ رجلا ينهرهُ لأنه يدمِنُ الشرابَ ويُشيرُ له إلى القبلةِ ويصحُو ناصر خسرو من نومه ويتمثل الرؤيا وكأنه يفيق من غفلة أربعين عامًا ويعتزم الرحلة إلى مكة إلى القبلة التي أشارَ إليها محدثُه...ويذهب إلى مرو طالبًا اعفاءهُ من الوظيفة ويعزمُ الحج سنة **1047م**[2]

ابن جبير: هو أبو الحسن محمد بن جبير الكناني البلنسي من أبرز الرحالة المسلمين الذين سجّلوا أخبار رحلتهم بدقة ويكادُ يجمع الباحثون الأسلوب الذي كتب به وصف رحلته من أفضل الأساليب التي كُتبت بها الرحلات العربية القديمة، ولد ابن جبير سنة (**540هـ/1145م**) في بنسبة وعمل كاتبًا لحاكم عزناطة واشتهر بتقوية في الكتابة النثرية والشعر، ويذكر أن حاكم غرناطة اضطره إلى شرب الخمرِ وكافأهُ على ذلك بسبعة كؤوس مملوءة بالدنانير، وعزم ابن جبير على أن يحج إلى بيت اللهç الحرام تكفيرًا عن خطيئته وهكذا ابنت فكرة الرحلة وبدأت رحلة ابن حبير سنة (**578هـ/1183م**) واستغرقت سنتين وثلاثة أشهر[3].

---

[1]-الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان، محمد محمود محمدين ، الطبعة الثانية 1996. دار الحزيجي للنشر والتوزيع، طريق مكة المكرمة، ص178 179.

[2]- المصدر نفسه، ص179-180.

[3]- المصدر نفسه، ص180-181.

ابن بطوطة: هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللّواتي الطنجي وكنيتُه أبو عبد الله ولقبهُ شمسُ الدين أشهر الرحالة المسلمين على الإطلاق، ولد ابن بطوطة في مدينة طنجة في السابع عشر من شهر رجب عام (**803هـ/1304م**) وتُشيرُ نسبة اللواتي إلى انه ينتمي إلى قبيلة "لواته" وهي إحدى القبائل البربرية التي انتشرت بطونها على طول ساحل إفريقيا الشمالي من المغرب حتى مصر.

وكل ما يُعرف عن شيء حياة ابن بطوطة الأولى أنه نشأ في بسطةٍ من العيش ونال حظًا يسيرًا من العلم في طنجة وكان يميلُ إلى تعلم الفقه وفقا للمذهب المالكي الذي سَادَ شمال إفريقيا آنذاك، ولم يخطر ببال ابن بطوطة أن يهجرَ وطنهُ لمدة تزيدُ على ربع قرنٍ قطع فيها أكثر من خمسة وسبعين ألف ميلٍ. ويبدو أن الحافز الرئيسي الذي دفعهُ على الخروج هو أداء فريضة الحج فخرج مُلبيًّا داعي الله من مدينة طنجة وهو في سن الثانية والعشرين.[1]

فهؤلاء الرحالة المسلمون كانت لهم إسهامات كبيرة في إثراء أدب الرحلة بكتاباتهم التي احتوت على كل طريف ممتع دون أن ننسى القيمة العلمية التي يجنيها القارئ لهذه الرحلات باعتبارها المرجع أو المرشد للتعرّف على أحوال العباد واخلاقهم ومذاهبهم وسيكون الحديث عن ابن بطوطة فيما بعد بالتفصيل لأنه مرافقنا في الفصل الثالث فنتعرف من خلاله على غرائب وعجائب المجتمع الهندي على وجه الخصوص والمجتمع بصفة عامة.

[1]- الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان، محمد محمود محمدين، ص181.

الفصل الثاني

جماليات الرحلة العربية

مدخل إلى الجمالية:

إن الجمالية مشتقة من الجمال، فالحديث عنها منضوٍ تحت لِواء علمِ الجمال ككّل هذا العلم الذي يختّصُ في كل جميلٍ.

إن الإحساس بالجمال موجود لدى الإنسان مثلما هو عند أكثر الناس وهو موجود في كل مكانٍ وفي كل شيء، وهذا الإنسان يحُسّهُ ويُدركه. إن الإنسان يتأمل بسرورٍ مكنونات الطبيعة من الزهورِ والأشجار والمحيط كله ويستخدم منذ زمن بعيد أداوته ليرسم مناظر من الهام خياله وإبداعه ورغم ضغوطِ الحياة العصرية يظّل هذا الإحساس الجميل متوقّدًا ومتوهجًا في النفس الشاعرة وهو إحساس لا ينمو من فراغ، بل يبقى في الشعور في حالة خمول ويكون فعّالا ونشيطا في ظروف معينة ونلمس هذا عند الطفل والشاب وكبير السّن فكل مرحلة لها مقاييسها التي تختلف طبقًا لارتباطها بمؤثرات بيئية واجتماعية أو زمانية ومكانية وكلّما زادت ضغوط الحياة على الإنسان كلّما زادت حاجته إلى تركيز اهتمامه في إيجاد حلول وأجواءٍ خاصّة به يتذوق من خلالها الجمال الذي ينشده ويتوق إليه ويجدُ نفسه بالقرب منه ويتخذ أشكالا عديدة عند الرسّامين والموسيقيين والشعراء موجود في انعكاس الأشعة على صفحات المياه، وفي شروق الشمس وغروبها وهكذا يظل الجمال وتذوقه أنبَلَ واهَّم خصائص العقل البشري وأجمل معاني القلب والروح والوجدان في جميع الأزمنة، وبمعنى آخر أن الجمالية أو التجربة الجمالية توجد الوعي وتصبح طبيعة الشاعر ومحيطه كلاً واحدًا، فالتجربة الجمالية تفاعل بين الإنسان ومحيطه، إن مميزات الشيء الجميل أن يطرق ذهن الشخص دون استئذان ويشعر بحلاوته وجماله تلقائيًا بمجرّد أن تقع عليه عينه أو تلامس سمعه، ولعل الحواس الخمس هي وسائل لشعورنا بهذا الجمال والاستمتاع به. والجمال نوعان احدهما حسّي يحدث اختلاجات في الجسد والآخر معنوي وتجسّده القيم الأخلاقية.

فالجمال عند أفلاطون حقيقة علوية لها طبيعة نورانية متحدة بذات الإله وهذه الحقيقة تمتد في الأشياء إلى أن تظهر ظلالها التي ندركها بالحواس، فالجمال الذي ندركه بالحواس ليس هو جوهر الجمال وإنما إدراك الجمال هو تلك الحقيقة النورانية لا يتأتى إلا بأداةٍ من نفس الجوهر هي الروح.

يقول أفلاطون: "**يجب أن تصبح العين مُعادلة ومشابهة للشيء المرئي كيما يمكن استخدامها في تأمله ولن ترى عين الشمس دون أن تصير مشابهة ولن ترى نفس الجميل دون أن تكون جميلة**".[1]

- فالجمال في نظر أفلاطون موجود في الروح وهي نُور الله أما الحواس فتعكس فقط ظلال الجمال وليس الجمال في حدّ ذاتِه.

- علم الجمال أو "**علم الجميل**" هو علم يبحث في الشعور والإحساس واللّذائذ التي تبعثها مناظر الأشياء الجميلة، الجميلُ يبعث في النفس الشعور بالحب والجاذبية واللّذة والسرور والقبيح يبعثُ الشعور بالكراهية والنفور، والجمال يتمثل في الطبيعة والنجوم المتلألئة وحبات الرمال المنثُور وشروق الشمس[2].

-كل الأشياء التي تبعث في النفس فرحًا وتترك في الروح صدًّى يعيشها الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته ويعبر عنها بإحساسه وتُحاكيها نفسه نطلق عليها اسم الجمال.

---

[1] الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة عز الدين إسماعيل ص، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الثالثة 1986 العراق-بغداد ص39-40.

[2] مبادئ الفلسفة، أ،س رايويرت دكتور في الفلسفة ترجمة عن الانجليزية احمد أمين ص52 دار الكتاب العربي بيروت، لبنان 1879.

- ومن الفلاسفة الذين عنُوا بعلم الجمال نجد الفيلسوف الألماني "هيغل" الذي يعرّف الجمال فيقول: "**إن الفارق بين الحق والجمال يتلخص في أن الحق هو الفكرة حين يُنظر إليها في ذاتها ولكن الفكرة نتحول إلى جمال حين تظهر مباشرة للوعي في مظهر حسّي**"[1]

وبناءً على ما سبق فهيغل يرتبُ الجمال بسبب ارتقائه إلى السمو الرُوحي أو دُنُوهِ من الإحساس وهكذا يعتبرُ أن جمال الطبيعة الخارجية الصامتة هو أدنَى أنواع الجمال ويقف على طرف نقيض من الجمال الفنّي لأنه ليس من خلق الروح أو الوعي ويليه الجمال في العالم النباتي ثم الحيواني ثم جمال الجسم الإنساني الذي يعلو كل أنواع الجمال الطبيعي، إذ تشّع منه الروح ويكون أكثرها تعبيرا عن وحدة الكائن الطبيعية[2].

فالجمال له درجات متفاوتة تختلف حسب طبيعة المحيط وطبيعة الإحساس، فالجمال الحقيقي هو الجمال الموجود في روح الإنسان، هذا الأخير له القدرة على خلق الإبداع والذي يتميز بالحركة عكس الطبيعة الصامتة هناك، تعريفات عديدة لعلم جمال نذكر واحدًا منها:

-اتجاه يجعل علم الجمال دراسة للجمال سواء كان الجمال في الفن أو في طبيعة وهل العنصر الجمالي عنصر ذاتي في الإنسان أم عنصر موضوعي في العالم الخارجي وهل يتصّف بطابع الثبات أم يتغير بتغير المجتمع والعصر والحضارة... ويعد أكبر ممثل لهذا الاتجاه أفلاطون في العالم القديم والفيلسوف الأمريكي المعاصر جورج سانتايانا[3]، هذا التعريف لا يحصر دراسة الجمال في مجال معين بل هو موجود في كل شيء ويتميز بالذاتية والموضوعية يحسه الفرد والمجتمع وليس له طابع معين.

---

[1] مفاهيم جمالية في الشعر العربي القديم (محاولة تنظيرية وتطبيقية) محمد مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر ص20.

[2] مفاهيم جمالية في الشعر العربي القديم، ص20-21.

[3] دراسات في علم الجمال، مجاهد عبد المنعم مجاهد، عالم الكتب، بيروت، ص19.

وظيفة علم الجمال ورسالته:

فهل علم الجمال علم نظري لا شأن له بالتطبيق بالنسبة للإبداع والتذوق؟ هناك شبه إجماع على أنه علم نظري ولقد أوضع بوزانكيت في كتابه "**تاريخ علم الجمال**" أن علم الجمال هو فرع من الفلسفة يوجد من أجل المعرفة لا كدليل للعمل...حقيقة أن علم الجمال لا يُملي شروطًا على إبداع الفن وتذوقه ولكن يُلاحظ أن النظرية إذا تغلغلت في النفوس وأصبحت تُشكِل رُوح العصر تبدأ في تغيير المفاهيم والقيم التي كانت سابقة....وعندما تُصبح الدراسات الجمالية جزءً من ثقافة الفنان عندما تُصبح الأنظار الجمالية داخِل البطانة النفسية للمتذوقين ستتغير الفنون وتتغير الأحكام الجمالية وتتغير الأذواق... .

إذن فعلم الجمال له صلة بالتربية الفنيّة على ألاّ تكون التربية مفروضة من الخارج بل تتم بالإقناع الذاتي والباطني.

وبهذا يستحيلّ علم الجمال وهو العلم النظري في المقام الأول إلى علم عملي وقيمة العلم أن يستحيل هو إلى الممارسة العملية لهذا العلم. ومن ثمّ فإن رحلة علم الجمال الحقيقية هي رحلة الفضاء على علم الجمال حتى لا تبقى في النهاية إلاّ الممارسة الجمالية إبداعًا وتذوقًا.[1]

لا يمكن فصل علم الجمال عن الأخلاق، فالجمال هو جزء من ثقافة الإنسان ومبادئه ومثُلِه العليا، فالقيم الخلقية والتربية تعكس جمال الإنسان الروحي ذلك الجمال الذي يرتقي بالإنسان إلى عالم المثُلِ والقيم الروحية التي تجعل من الجمال جمالا باطنيا (روحيّ) قبل أن يخرج إلى المحيط الخارجي ومؤثراته.

[1] دراسات في علم الجمال، ص22.

الوصف:

الوصف في المصطلح الأدبي هو: "**تصوير العالم الخارجي أو العالم الداخلي من خلال الألفاظ، والعبارات وتقوم فيه التشبيهات والاستعارات مقام الألوان لدى الرسّام والنغم لدى الموسيقى**"[1]. والوصف من أساليب التعبير الرئيسية التي يعتمد عليها عنصر القصّ، ويعدُّ الوصف من الدعائم الأساس التي يتوسل بها المؤلف لنقل مشاهداته والتعريف بالبلدان المجتازة أثناء سفره وهو الذي يمتدّ من المكان إلى الشخوص لتحديد صفاتهم الخُلقية والخَلقية، وفي ذلك لا يمكننا حصر هذا الشكل لأنه مستفحل في النصوص، وإنما يمكننا أن ندل على بعضها.[2] فالوصف في الرحلة إذن محاولة من قبل الرحّالة لتسمية المرئي في تموقعه المكاني أولا ثم الانتقال إلى تموقعه الزماني عند تفسيره أو تأويله، والوصف يقوم على المشهدية التي تأرجحت بين حدّين: الحدّ البانورامي والمشهد الخاص فالسارِدُ يتحدث عن هذه المدينة ثم يلتفت بعد ذلك إلى مرحلة يتم فيها تقطيع المشهد إلى لقطات شملت مظاهر الحياة والمدينة الجزئية (نهر النيل بحر الإسكندرية) وبين الحدّ المرئي والمرجعي عن طريق المقارنة بين مرئيات العين وبين تداعيات الذاكرة ويصبح المشهد أنداك مشهدًا مركبًا من جزئيات الصورة المشكلة من حضور المرجع المرئي إلى الحدّ الذي يصبح فيه المرجع مقياسًا للمقارنة بين الصورتين.[3] ويتراوح الوصف عند الرحّالين خصوصًا وصف المكان بين الإيجاز والإطنابِ، مع البساطة والعموم. ويقلُ الوصف في الرحلات السياسية ذات الأسلوب التقريري. والوصف في الرحلة لم يأخذ لونًا

---

[1] ينظر جمالية المشهد في أدب الرحلة الجزائري الحديث ص111.

[2] المصدر نفسه ص111.

[3] الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر (مستويات السرد) عبد الرحيم مرّده، ص296،221،220 دراسات في الأدب الجغرافي، ط1، 2006 دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة.

واحدًا بل تعّددت ألوانه من وصف للبلدان والأماكن ثم وصف الإنسان بشخصياته المختلفة ويليه وصف الطبيعة بكل ما احتوته من جبال وأنهارٍ ووديانٍ...إلخ.

وصف المدن:

المدن هي العالم الخالدة الأزلية التي كانت أهم محطة من محطات الرحلة باعتبارها المكان الذي يتوقف عنده الرّحالة ليأخذ راحته ثم يتابع السفر ليحط الرحال في مدينة أخرى وهكذا تتوالى المدن واحدة بعد الأخرى حتى يتم الرحّالة سفره والمدينة هي اللّبنة الأساسية في بناء العملية السردية باعتبارها الإشعاع الذي تنطلق منه الحضارة، فالمدينة مشعل نوراني من اشعاعات المدينة في علومها ومعارفها وتختلف المدن من حيث القداسة والتاريخ والاهتمام لذلك تعدد ذكر المدن والقرى في الرحلات، ومن المدن التي أُغْرِمَ الرّحالة بزيارتها وشدت انتباههُ مدينة مصر أو كما يقال لها أم الدنيا ، فمن لم يزُر مصر لم ير الدنيا وكأنّ الدنيا بمتاعها وجمالها وخيراتها موجودة في مصر وهذه الأخيرة مدينة سياحية جميلة كانت محطّ أنظار السّواح والشعراء ومدينة الإسكندرية واحدة من المدن المصرية الجميلة أو هي بوابة مصر وذلك لتواجدها على البحر فيصفها الإدريسي أحسنَ وصفٍ فيقول: " **أما الإسكندرية فهي مدينة بناها الإسكندر وبه سميّت وهي مدينة نخر البحر الملح وبها آثار عجيبة ورسوم قائمة تشهد لبانيها بالملك والقدرة وتعرب عن تمكّن وبصَرٍ، وهي حصينة الأسوارِ، نامية الأشجار، جليلة المقدار، كثيرة العمارة، رائجة التجارة، شامخة البناء، رائعة المعنى، شوارعها فُسَاح وعقائدُ بنيانها صحَّاحٌ وفرشِ دورها بالرخام والمرمرِ، وحنايَا أبنيتها بالعمَدِ المُثْمر، وأسواقها كثيرة الاتساع ومزارعها كثيرة الانتفاع، النيل الغربي منها يدخل تحت أقبية دورها كلها**"[1] ثم نراه يصف تلمسان ملهمة الشعراء وحاضرة العلم والأدب فيقول: " **تلمسان مدينة أزلية لها سُور حصين**

[1]- القارة الأندلسية وجزيرة الأندلس. تحقيق إسماعيل العربي، ص221.

متقن الوثاقة، وهي مدينتان في واحدة يفصلُ بينهما سورٌ ولها نهرٌ يأتيها من جبلها المسمّى بالصخرتين وعلى هذا الجبل حصن بناه المصمودي قبل أخذه تلمسان ولم تزل المصامدة قاطنين به إلى أن فتحوا تلمسان وهذا الوادي يمرُّ في شرقي المدينة وعليه أرجاءٌ كثيرة وما جاورها من المزارع كلها مسقي. وغلاّتها ومزارعها كثيرة وفواكهها جمّة وخيراتها شاملة ولحومها شحمية سمينة وبالجملة أنها حسنة لرخص أسعارها ونفاق أشغالها ومرابح تجارتها..." [1]

فالرّحالة أعطانا صورة كاملة عن مدينة تلمسان وذكر لنا آثارها الخالدة والأزلية، ووصف أنهارها ووديانها وأنها بلدة زراعية يمارس أهلها مهنة الفلاحة والرعي وتكثرُ في هذه المدينة الفواكه بأنواعها. كما بين لنا أن المعيشة في تلمسان ميسّرة يستطيع أي إنسان أن يستقر بها لرخص أسعارها وتنوع تجارتها.

ومكة المكرمة من المدن المقدسة عند المسلمين وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في العديد من السور والآيات القرآنية، أُطلق عليها اسم بكة وأم القرى وهي مسقط الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ونظرا لأهمية مكة المكرمة فقد زارها وكتب عنها الكثير من الجغرافيين والرّحالة المسلمين الذين دَوَنُوا مشاهداتهم حول هذا المكان المقدس وقد ورد ذكرها في القرآن لقوله تعالى: "وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ" [2]

وقد منّ الله عليها بكثير نعمه من مبان فخمة وأسواقٍ تنوّعت فيها البضائع والسلع ومنتجاتٍ محلّية بالإضافة إلى خيراتها الطبيعية مما تُنتجهُ الأرضُ من بقلها وفُولها وثمرها ولمكة

---

[1]- القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، ص149-150.

[2]- القرآن الكريم سورة الأنعام الآية 96.

المكرمة معالم دينية كالوادي المقدّس الذي ورد ذكره في القرآن وغارْ ثور في جبل مكة دون أن ننسى غار حراء الذي كان يختلي فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم لمناجاة ربّه، وابن جبير عند زيارته لمكة المكرمة لتأدية فريضة الحج زار كل مشعرٍ حرام ووصفه أحسن وصفٍ، ومن المعالم التي تم وصفها في رحلة ابن جبير وصفه لجبل حراء فيقول: **"هو في الشرق على مقدار فرسخٍ أو نحوه مُشرِفٍ على مِنَى، وهو مرتفع في الهواء عالي القِنَةِ وهو جبل مباركٌ كان النبي صلّى الله عليه وسلم كثيرًا ما ينتابُه ويتعبدُ فيه، واهتزّ تحتهُ فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم: "ولتكن حراءُ فما عليك إلا نبيٌّ وصديقٌ وشهيدا" وكان معه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وأول آية نزلت من القرآن على النبيّ نزلت في الجبل المذكور."** [1]

وممّا سبق ذكره نلاحظ أن مكة المكرمة وكلَ ركنٍ من أركانها كان محلَ إعجاب الرّحالة فكل رحّالة زارَ مكة إلاّ وكانت له انطباعات ومواصفات رائعة زادت من جمالية الوصف في الرحالة باعتبار الأماكن المقدسة هي المحطات الأساسية التي توقف عندها معظم الرحالين لأنها كانت الدافع الرئيسي للرحالة وهو أداء فريضة الحج، فابن جبير زار مكة وأُعجِبَ بكل شبرٍ من تُرابها وتبركَ بزيارة قبور الصحابة والصالحين فيها ووصف لنا المشهد بكل ما تحمله معاني الكلمات من شوقٍ وفخرٍ وابتهاج لزيارة هذا المكان المقدّس، وابن خلدون واحدٌ من الذين زاروا مكة المكرمة وأدى مناسك الحج وللأسف الشديد لم يصف لنا هذا المكان بالرغم من عظمته وقدسيته، فقط ذكر في الرحلة طريق الذهاب والعودة دون أن يُشير ولو إلى وصفٍ أحد أركان مكة المكرمة أو مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوصفه في الرحلة اقتصر فقط على وصف القاهرة فراح يقول: **".... رأيتُ حضرة الدنيا وبستان العالم، ومعشر الأمم ومدرج الذُرِّ من البشر وايوانِ الإسلام وكرسي المُلكِ تلُوحُ القُصورُ والأواوين في جوّه وتزهَرُ الخوانكُ**

[1]- مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة حسّان حلاّق ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، ط1، 1996.ص 56.

والمدارسُ بآفاقه وتضيءُ البدورُ والكواكبُ من علمائه ومثل بشاطئ نهر النيل نهر الجنّة ومدفع مياه السماء يسقيهم النَهلَ والعَللَ سَيْحهُ ويُجبي إليهم الثمرات.... وما زلنا نُحدّث عن هذا البلدِ وبُعدَ مداه في العمران واتساع الأحوال"[1].

فابن خلدون أعطانا تحفة فنية عن القاهرة فراح يصف كثرة السكان بها والذين شبههم بالنمل الأحمر المتواجد في كل مكان إضافة إلى علمائها وتوفر الزوايا ودُورِ العِلم لاستقبال الطلبة الوافدين من البلدان المجاورة ونهر النيل الذي وصفه بنهر الجنة فهو جنة الله في الأرض لكثرة مياهه وتدفق الخيرات من أنهاره، فرحنا نطرح السؤال الآتي: ما الذي جعل ابن خلدون يصف القاهرة بهذا الوصف الجميل؟ هل حبه لها؟ أم توليه القضاء بها عدة مرات؟ أم ذوقه الفنّي هو الذي فرض عليه هذا الوصف؟

فنهرُ النيل وردَ ذكرهُ في معظم الرحلات لعظمته وشساعته ونهر النيل عند معظم الرحّالة المغاربة على اختلاف عصورهم لوجدنا أن تقديم النهر في رحلة من هذه الرحلات خضع للمنظور **ذاته عند معظم الرحالة فنهر النيل** "ليس في الدنيا أطولُ منه لأنه مسيرةُ شهرين في الإسلام، وشهرين في الكفر، وشهرين في البرية وأربعة أشهرٍ في الخراب من بلاد جبل القمر.."[2].

والورتلاني رحّالة جزائري طاف بلدانٍ من الوطن العربي كتونس وليبيا ومصر والحجاز ولا ننسى بلده الجزائر التي زار معظم ولايتها من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها، ناقلا لنا عادات وتقاليد المجتمع الجزائري مقارنة مع عادات المجتمع التونسي والليبي... ورحلة الورتلاني هي الشاهد الحيّ الذي نقلهُ لنا الرّحالة من معلوماتٍ هامة وشهادة تامة عن الأصول الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية لأجزاءٍ من الوطن العربي كما لا ننسى أن الورتلاني

---

[1]- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا عبد الرحمان بن خلدون، دار الكتاب اللبناني بيروت، لبنان، دار الكتاب المصري، القاهرة، ص264، 265.

[2]- الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر (مستويات السرد) عبد الرحيم مودن، دراسات في الأدب الجغرافي، ط1 2006، دار السويدي للنشر والتوزيع. الإمارات العربية المتحدة، ص216.

كانت له محطّات كثيرة في الرحلة منها التعرف على الشخصيات السياسية والدينية والتعامل معها كتبادل للثقافات وتلاقح للأفكار ورحالتنا زار تونس وذكر لنا أسماء بعض المدن فيها: الحامة، تُوزر، صفاقس، سُوسة...

وقد وصف قابس: "**بأنها قرية ذات مياه كثيرة ونخيل وبساتين من الرمّان والعنب والتين والفواكه المختلفة وبها أسواقٌ جمّة ودكاكين مهمة وتكثر بها المساجدُ وقد اشتهرت بمزارع الحناءِ التي فاقت فيها غيرها من المدن والبلدان**"[1] والورتلاني عند زيارته لطرابلس ترك ملاحظات حول الحالة الثقافية في ذلك البلد وأشار إلى وجود مدارس لتدريس القرآن أو كما يعرف بالزوايا فيقول: "**ثم مررنا بالزاوية الغربية ... وقد كثر فيها أهل الخير من الصالحين أهل الانصاف والأحياء والأموات ينبت فيها الصالحون كالشجر فلا تجد ناحية إلا وفيها فقراء والمزارات، بحيث أن كل ناحية تجدُ فيها مزارًا حيا أو ميتًا**"[2].

فالرحالة أعجب بعلماء هذه المدينة خاصّة وأنهم يدرسون القرآن وعلومهُ فنزعته الدينية جعلته يصف الصالحين وكراماتهم بذلك الشجر الذي يكثُر نباتهُ في الأرض وهذا دليل على أن حلقات التدريس في تواصل مستمر دون انقطاع مادام هناك علماء أجلاّء حملوا مشعل العلم متزودين بروح الإسلام لمسْحِ ظلمة الجهل بتنوير العقول وتهذيب النفوس والقلوب، فالزوايا هي ذلك المنبع والإشعاع الروحي لعلماء الدّين والمتصوفة يقتبسون منه نورَ الله في العلم.

ومن الذين أسهموا في أدب الرحلة أيضا الرحالة شيخ الإسلام ابن عبد الله الكتاني الحسني قام برحلة شملت عدة مناطق من الوطن العربي لكنه صرّح بأن الدافع الأساسي للقيام بالرحلة هو أداء فريضة الحج وبعد أن أدّى مناسكَ الحج توجّهَ إلى الديّار العربية فتعرف إلى أهلها وفقهائها ووصف عاداتهم ومذاهبهم ومن ذلك حرصُه على ذكر العلماء الذين لقيهم

---

[1]- رحلة الورتلاني عرض ودراسة مختارين الطاهر فيلالي دار الشهاب، باتنة الجزائر، ص123.

[2]- المصدر نفسه، ص176.

كذلك زيارة قبور الصالحين في البلدان التي رحلَ إليها، والرحّالة حضرَ حلقات الدروس ومجالس الوعظ ووصف هذه المجالس وحلقات العلم أحسن وصفٍ، ومن ذلك وصفه لمجلس شيخ الأزهر سليم البشري في مسجد السيدة زينب: "**وحضرنا أيضًا مجلس الشيخ سليم البشري وهو من كبار علمائها ومن يشارُ إليه فيها بل كان شيخ الإسلام بها فوجدناه يقرأ البخاري وذلك في مسجد السيدة زينب في حديث "يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب" فقرر تقريرًا حسنًا وأفاد ... نفع الله به**"[1] وقال عن جامع الأزهر : "... **بالجامع الأزهر في وقته هذا من المدرسين نحو ثلاثمائة مدرس ومن الطلبة المجاورين نحو إثنى عشَرَ ألفًا وأن بغير الأزهر مدرسين آخرين غير الثلاثمائة، لا ينتصب أحد للتدريس بالأزهر إلاّ بعد اختباره في اثنى عشر علمًا**"[2].

مما سبق ذكره نلاحظ أن شيخ الإسلام ركّز على وصف المساجد باعتبارها قبلة المسلمين، واهتمّ بالفقهاء ومعلمي القرآن فراح يصفُ حلقات العلم وفي بعض الأحيان كان ينقدُ بعض الفقهاء إذا رأى أو سمع شيئًا منافيًا لتعاليم الدين الإسلامي وهذا بحكم وازعه الديني الذي فرض عليه أن يبحث عن العلماء الربانيين والصلحاء الأتقياء، وأيضا المسعودي واحد من الرحالة الذي بلغ شهرة وذاع صيتُه وكتابه "**مروج الذهب ومعادن الجوهر**" احتوى هذا الكتاب على وصف المدن والأماكن والطبيعة، وأعطانا الرحّالة صورة كاملة عن البلدان العربية بوصف أقاليمها ومدنها ومحيطها وشخصياتها التي تنوعت بين السياسية والدينية والأدبية وركّز المسعودي على ذكر المدن التي تمّ ذكرها في القرآن الكريم ليكون ناقلا لمشاهد عايشها بالملاحظة، فكتاب المسعودي يعدّ مرجعًا يستفيد منه التاريخي والأنثروبولوجي والجغرافي...إلخ. وهو يصف

---

[1]- الرحلة السامية إلى الإسكندرية ومصر والحجاز والبلاد الشامية أبي عبد الله الكتاني الحسني، تخريج محمد حمزة بن علي الكتاني، تعليق وتقديم محمد بن عزوز. مركز التراث الثقافي المغربي الدار البيضاء، ص 38.

[2]- المصدر نفسه، ص38.

بلاد سبأ فيقول: "**وذكر أصحاب التاريخ القديم أن أرض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها، وأغدقها وأكثرها جنانًا وغيظانا وأفسحها مروجًا، ومع بنيانٍ حسن وشجرٍ مصفوف ومساكب للماء متكاثفة، وأنهار وأزهارٍ متفرقة وكان أهلها في أطيب عيشٍ وأرفهه وأهنأ حالٍ، وأرغدَ قرى وفي نهاية وطيب الهواء وتدفقِ الماء**"[1].

نلاحظ أن بلاد سبأ اختصّها الله من الخيرات والبركات فكانت جنة الله في الأرض بعد الجنة التي وعد الله بها المتّقين، فالمسعودي عدّد خيراتها التي لا تُحصى من بساتين وأشجار وأنهار ووصف لنا أهلها الذين يعيشون عيشة بذخٍ ورفاهية يأكلون من خيرات بلادهم وكما نعلم أن القرآن الكريم ذكر سبأ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[2].

فالقرآن لم يحدّد موقعها الجغرافي ولا ملوكها ولا جيوشها بل ذكر الوجود التاريخي لها وحالة الوفرة المادية التي بلغتها، فالقرآن كان شاهدًا على حضارة سبأ بما فيها مرحلة التحضر والسقوط.

وابن حوقل زار مدن عربية وإسلامية ونقل لنا في رحلته شواهد حيّة لعادات وتقاليد المجتمع المغربي والمشرقي وذكر إقليم كل بلد ومواطن التجارة فيه، والرحالة في كتابه "**صورة الأرض**" هذا الكتاب شمل البلاد الإسلامية والبلدان المجاورة لها. ولم يتعرض لذكر أوربا ولا الصين عدا صقلية ذكرها في رحلته، وابن حوقل أفرد فصلا للحديث عن الأندلس ودويلاتها ومن ذلك وصفة لقرطبة فيقول: "**ليس بجميع بلاد المغرب لها شبيه ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يدانيها في كثرة أهلٍ وسعة رقعةٍ وفُسحةِ أسواقٍ ونظافة محالٍ وعمارة مساجد**

[1]- مروج الذهب ومعادن الجوهر الجزء2. علي بن الحسين المسعودي تقديم محمد السويدي، سلسلة الأنيس 1989، ص190.

[2]- القرآن الكريم سورة سبأ الآية 15.

وكثرة حمامات وفنادق"[1]، ثم يواصل حديثه عن الأندلس فيقول: "**والأندلس يغلبُ عليها المياه الجارية والشجر والثمر والأنهار العذبة والرخص والسعة في جميع الأحوال، إلى نيل النعيم والتملك الفاشي**"[2].

فقرطبة في نظر ابن حوقل هي عروس الأندلس بجمالها الذي يكمن في طبيعتها وزخرفة مساجدها إضافة إلى حمّاماتها وفنادقها التي أبدعتها أناملٌ فنانٍ مسلم من فيسفساء جمعت بين الخضرة والزرقة مشكلةً طبيعةً غنّاء تروقُ لها النفس لمحاكاتها، أما الأندلس فمياهها لا تعرف الانقطاع فهي في جريان مستمر لذلك تكثر فيها الفواكه على مرّ السنة فهي في متناول الجميع وسكان الأندلس قد وسّع الله عليهم المعيشة في جميع الأحوال لذا فهم يعيشون عيشة نعيم ورفاهيةٍ.

إن صورة الغرب الذي ظّل منذ حقبة الطهطاوي مزارًا ومقصدًا للدراسين المسلمين والأدباء، والرحّالة الطوّافين على حدّ سواء قد شهدت تباينا في وُجْهات النظر، فهناك من انبهر بمنجزات الغرب انبهارًا شديدًا إلى حدّ الدعوة إلى الأخذ بمظاهر حياة المجتمع الغربي ونقل أفكاره ووسائله التقنية إذا أراد المسلمون إصلاح تخلفهم واللّحاق بركب الحضارة العصرية ومن البلدان الغربية التي لها تأثير قوي في نفوس رحّالينا باريس التي أضحت قبلة للزوّار والرحّالة على وجه الخصوص، تقول الأديبة نازك سابا يارد" أن كلاّ من الطهطاوي والشدياق قد أحسّوا بالحاجة إلى تدوين مشاهداتهم وانطباعاتهم في أسفارهم لا لحاجة ذاتية، بل لحاجة سياسية واجتماعية إذا صّح التعبير أو قل هي الذاتية الفردية التي اتسّعت حتى غدت قضايا السياسة والاجتماع حالات انفعال فيها، ذلك أن رحّالينا شاهدوا واقع المجتمع الغربي وشعروا بالفرق الشاسع بينه وبين مجتمعهم الشرقي في المضمار السياسي والاجتماعي والعلمي، فأبدوا إعجابهم بمعظم ما رأوا

[1] دور المسلمين في تقدم الجغرافية الوصفية والفلكية، إسماعيل العربي ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر ص311.

[2] المصدر نفسه ص312.

في الغرب كما اعربُوا عن ألمهم لتخلف الشرق وأحسُّوا بأن هذا الشرق لن يتطور إلاّ إذا اقتبس علوم الغرب ونُظُمِهِ السياسية والاقتصادية وعليه قال الطهطاوي إنه وصف مشاهداته في فرنسا كي يوقظ "من نوم الغفلة سائِر أمم الإسلام من عرب وعجم"[1].

ويصفها الرحّالة المغربي ابن عثمان المكناسي الذي زارها وكانت له انطباعات حول هذا البلد فراح يقول: "**باريز هي عاصمة أفرانسا، بل عاصمة العلوم العصرية والآداب الأوربية والأخلاق الجميلة، والأموال الجليلة، والظرافة والكياسة والسياسة....وبالجملة فهي حلية معاصم العواصم وأجمل مدينة قطعت إليها أكباد الروَاسم، فسبحان من جمع لها الجمال وتجلّى عليها بالجمال الدنيوي الظاهر، فأهلها ذوو ذوقٍ لطيف مُصيب...حتى المركبات جميلة لطيفة ممّوهة بأدهانٍ متنوعة ذات ألوان تأخذُ بالأبصار، قال بعض الرحّالين، أجمعت أراء العالم قاطبة أنها أول مدائن الأرض زهادٌ وبهاءٌ، ما رأى الناس منذ قامت الحضارة لها نظيرًا في جمال شوارعها ومبانيها ومتاحفها...**"[2].

نلاحظ أن وصف المكناسي لباريس هو وصف مُشفع بالإعجاب والاستحسان والتفضيل لهذا البلد على العواصم الأوربية وتأثره بمعالم الحضارة فيها.

وها هو رحّالة آخر لا يقّل أهمية عن سابقيه وهو الرحّالة القلصادي الأندلسي الذي يصف تلمسان في رحلته فيقول:"...**ثم توجهنا إلى المقصودة بالذات، المخصوصة بأكمل الصفات تلمسان، يا لها من شان، ذات المحاسن الفائقة، والأنهار الرائقة والأشجار الباسقة، والأثمار المحدقة والناس الفضلاء الأكياس المخصوصين بكرم الطباع**

---

[1] الرحّالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، نازك سابايارد، ط2 1992، نوفل ص23.

[2] أوربا في مرآة المرحلة صورة الآخر في الرحلة المغربية المعاصرة سعيد بنسعيد العلوي دار السويد للنشر والتوزيع 2006 ص128.

والأنفاس...وأدركت فيها كثيرًا من العلماء والصلحاء والعّباد والزّهادِ، وسوق العلم حينئذٍ نافقة، وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة"[1].

فالرّحالة أعطانا لوحة فنّية عن تلمسان جمعت بين جمال الطبيعة الفتّانِ وبين علمائها الأجلاّء يتصفون بكرم الطباع وحسن الخصال وذكر العُبادِ وهو مكان فيه ضريح أبي مدين شعيب الرجل الزاهد الصوفي وهو واحد من الذين تركوا بصماتهم في كتب التاريخ.

وصف الإنسان:

الإنسان هو ذلك الكائن الحي الذي يعيش في أحضان الطبيعة وكما يقال هو كائن اجتماعي بطبعه، فالرحّالة هو إنسان قبل كل شيء يعيش وسط الناس يشاركهم أفراحهم وأحزانهم فهذا الرحّالة البسيط الذي جاب العالم من شرقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه، شاءت الأقدار أن يتعرف من خلال رحلته إلى أناس ربما قد جمعته بهم الصدفة وقد تكون الظروف والأقدار كذلك، فهذا الرحّالة تعرّف إلى شخصيات كثيرة ومتنوعة منها الشخصيات السياسية والعلمية والدينية والأمراء والسلاطين...إلخ وحتى الشخصية العادية كانت محل مشاهدته فمعظم الرحالين المسلمين، ذكروا لنا ووصفوا عدة شخصيات كانت المحرّك الأساسي لمسار الرحلة وهذه الشخصية هي حقيقية موجودة رآها الرحّالة وتعامل معها وهي ليست من افتراض الخيال، فنجد في رحلة ابن جبير تنوّع في الشخصيات فهو يمدح السلطان أحمد بن طولون ويثني عليه في مآثره ومفاخره فيقول: "...**ومن مآثره الكريمة المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة أنه مرّ بعمارة مُحاصِر (مدارس) ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل يعلّمون أبناء الفقراء والأيتام خاصّة وتُجرى عليهم الجراية الكافية لهم، ومن مفاخر هذا السلطان وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين القناطر التي شرع في بنائها بغربي مصر وعلى**

[1] رحلة القلصادي لأبي الحسن علي القلصادي الأندلس، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع ص95.

مقدار سبعة أميالٍ منها بعد رصيف ابتدئ به من حيّز النيل بإزاء مصر كأنه جبال محدودً على الأرض تسير فيه مقدار ستة أميالٍ حتى يتصّل بالقنطرة المذكورة وهي نحو الأربعين قوسًا من أكبر ما يكون من قسّي القناطر والقنطرة متصلة بالصحراء التي تُفضي منها إلى الإسكندرية له في ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة إعدادًا لحادثة تطرأ من عدُّوٍ يدهم جهة تغر الإسكندرية عند فيضي النيل وانغمار وامتناع سلوك العساكر بسببه"[1].

فالسلطان أحمد بن طولون كثرت مناقبه وفضائله على أهل بلده الذي يعترفون بذلك فاعتنائه بالمسلمين وحرصه على تعليم القرآن للفقراء والمساكين دليل على نزعته الدينية وعن عاطفته الجيّاشة وإحساسه المرهف تُجاه كل فقير عاجز عن سّد حاجاته وحاجات أسرته.

ومن الشخصيات الدينية والعلمية التي كان لها وقع مشهدي على رحّاليا يصف ابن جبير جمال الدين، الرجل الفقيه السّني الورع الملتزم بقضايا بلده وشعبه، فنراه يصفة في مشهد مؤثر خاصة وأن جبل عرفات يشهد له بذلك فيقول:"...**كان رحمهُ الله وزير صاحب الموصل تمادَى على هذه المقاصد السُنّية المشتملة على المنافع العامة للمسلمين في حرم الله تعالى وحرم رسوله صلّى الله عليه وسلم أكثر من خمس عشرة سنة ولم يزل فيها باذلاً أموالاً لا تُحصى في بناء رباع بمكة مسبّلة (جعل الماء في سبيل الله) في طرقِ الخير والبر مؤبدة محبسة واختطاط صهاريج للماء ووضع جباب في الطرق يستقر فيها ماء المطر إلى تجديد آثار من البناء في الحرمين الكريمين، وكان من أشرف أفعاله أن جلب الماء إلى عرفات...وجعل مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم تحت سورين عتيقين**

[1] رحلة ابن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ص27.

انفق فيهما أموالاً لا تحصَى كذلك جدّد أبواب الحرم، وجدّد باب الكعبة المقدسة وغشّاه فضة مذهبة"[1].

حقيقة شخصية جمال الدّين شخصية مثالية تستحق التقدير والتعظيم فبورك لهذا الرجل المتدين الذي سيشهد له كل ركن من أركان المدينة وكل مشعرٍ حرام في مكة بسخاء وعطاء هذا الرجل الذي كثرت مناقبُه وفضائله على أهل مكة وسيظل التاريخ شاهدًا على عمله النبيل وأفعاله الكريمة والشيء الجميل أن جمال الّذين عندما توفي دفن إلى جوار محبوبنا صلّى الله عليه وسلم وأسعده الله بالجوار الكريم وخَصَّهُ بالمراراة في تربة التقديس والتعظيم والله لا يضيع أجر المحسنين.

إن حضور صورة الآخر في أدب الرحلات دليل على وجود التواصل الإنساني عند الرحّالة، ولقد لفت انتباهنا تركيز ابن خلدون في رحلته على وصف الآخر المر الذي تميّز به عن باقي الرحّالين فالرجل يقدم لنا ملامح كل شريحة من شرائح المجتمع فتراه يصف الملك تيمورلنك وهو في ذلك يقرُّ بتجربته الشخصية في الحكم على أحد الملوك "**وهذا الملك يتمور من زعماء الملوك وفراعنته والناس ينسبونه إلى العلم، وآخرون إلى اعتقاد الرفض وآخرون إلى انتحال السحّر، وليس من ذلك كله في شيء، إنما شديد الفطنة والذكاء كثير البحث واللّجاج بما يعلم وبما لا يعلم**"[2].

فصورة الملك يتمور في نظر ابن خلدون تبقى في حدود الاستقبال الحسن الذي لقيه منه عندما سأل عنه فخرج إليه إلى دمشق ومن هنا نستنتج استنتاجًا تامًّا أن الرحّالة كان ينزل الناس منازلهم ثم تراه يصف الفقيه القاضي جمال الدين الأفقهسي قائلا: "**لما أقمت عند السلطان تيمور تلك الأيام التي أقمتها طال مغيبي عن مصر وشيعت الأخبار عني بالهلاك فقدم**

---

[1]-رحلة ابن جبير، ص102،103.

[2]-التعريف بابن خلدون ورحلته عزبًا وشرقا، ص428.

للوظيفة من يقوم بها من فُضلاء المالكية وهو جمال الدين الافقهسي، غزير الحفظ والذكاء، عفيف النفس للتصدّي لحاجات الناس، ورعٌ في دينه"[1].

فبالرغم من أن هذا القاضي قد أخذ منصبه في القضاء ومع هذا لم ير فيه إلاّ ملامح الرجل الفقيه العدل لأن ابن خلدون كان فقيهًا قبل كل شيء، لذا استحسن هذا الرجل وراح يصفه بما كان يعرفُه عنه بصدق متناهٍ يعجزُ عليه أو بالأحرى يتجنبهُ رجلٌ منافسٌ كابن خلدون.

ثم نرحل إلى المغرب لنقرأ لرحالة مغربي لا يقل أهمية عن سابقيه هو الرحّالة المغربي عبد الله بن محمد العياشي يصف رجل صالح كثير الكرمات يقيم في زاويته كما اعتاد لبعض المتصوفة على عدم مفارقة الزاوية باعتبارها المكان الذي يرتاح فيه الرجل الصوفي ويتعبد ويتهجدُ فيه، فيقول العياشي: "**...كان خروجنا خارج زاوية الولي الصالح الشهير التصريف، الغني بشهرته عن التعريف سيدي عبد السلام الأسمر، وهو رجلٌ من أهل المائة العاشرة، كثير الكرمات، عالي المقامات، من أجّل تلامذة سيدي أحمد بن عروس نزيل تونس والغالب عليه الجذبُ في أول أمره وآخره، وله تصرف قويّ ويؤثرُ عند أهل البلد من تصرفاته، آثار كثيرة يطول استقصاؤها، وأخبارهُ في قهر الجبابرة وفّك الأسرى من أيدي الافرنج في حياته وبعد مماتِه شهيرة وهو من بلدة يقال لها الفواتر...ولم تزل هذه البلدة التي هو منها مأوى الصالحين ووكر العابدين من قديم الزمان تواتر عند أهل البلد أنها لا تخلو من سبعة أكابر من الصالحين**"[2]

يبدوا لنا من النص السابق أن العيّاشي كان يقبل على زيارة الزوايا والتبّرك بدعوات الأولياء الصالحين وبكراماتهم، وذكر أن بلدة فواتر هي مأوى الصالحين ووكر العابدين لا يفارقها

---

[1]- التعريف بابن خلدون ورحلته عزبًا وشرقا، ص429.

[2]- الرحلة العياشية، عبد الله بن محمد العباسي، حققها: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ط1 2006، المجلد1، دار السويد للنشر والتوزيع الإمارات العربية المتحدة، ص184.

أصحاب المقامات ثم يواصل حديثه ليصف ناسكًا وعابدًا آخر من عباد الله المتقين المخلصين: "..**ومنه الناسك الخاشع العابد الخاضع المقري الفصيح، البّر النصيح، المتواضع الزاهد، حليف المساجد الفقيه النبيه. سيدي الشيخ محمد القراري من أقدم المجاورين بالمدينة المشرقة وأكثرهم للأماكن التي هناك تُزار معرفة قدم من بلاده قرارة التي بين أعالي النيل وأرض السُودان فاستوطن المدينة قريبا من أربعين سنة، وله مشاركة في فقه مالك، يتقن قراءة القرآن، وهو دائما يقرئ الأطفال مؤخر المسجد الشريف من دون مشارطة على أمرٍ معلوم....والناس يتبركون به. ويرون ظهور بركته على أولادهم، فيتنافسون في القراءة عنده، ويأوي إليه الغرباء فيبصرهم ويُقوي قُلوبهم ويعضّهم على آداب المجاورة ويُعاملهم بما قدر عليه**"[1].

هذا الرجل الفقيه لا يقلُ أهمية عن العلماء والصالحين والذي زاد من علّو مكانته بين الناس أنه كان يقرئ الأطفال القرآن بالمسجد الشريف وهذه صفة جليلة اختّص الله بها عباده الزُهاد، فالعياشي في رحلته لم يصف الرجل السياسي أو الشاعر...بل كان اهتمامه بالفقيه الذي كان مزَارًا من قبل الرحّالين لأن صورة الفقيه في الرحلة تعكس صورة المجتمع الإسلامي الذي تربطه الروابط الدينية الروحية.

وصف الطبيعة:

الرحلة حركة والحركة تتطلب الانتقال من مكان إلى مكان آخر، والطبيعة هي واحدة من الأماكن التي نشأ فيها الإنسان وترعرع بين أحضانها، والإنسان منذ القديم جُبل على حُبِ الطبيعة والتجوّل في أركانها، فالطبيعة هي المأوى للكائن الحيّ سواء كان إنسانا أو حيوانًا يحنُّ

[1] جبل درن، يطلقه الجغرافيون العرب على سلسلة جبال الأطلس التي تشكل هيكل شمال إفريقيا والتي تمتد من المحيط الأطلسي إلى خليج تونس مخترقة المغرب الأقصى والجزائر وتونس.

إليها كلما ضاقت به الدنيا فكانت جبالها سكنًا له وسمائها مُتنفسًا لآلامه. فكم من عالم عاش في الطبيعة يتذوق حسنَها وجمالها ويستمد من تربتها وهوائها قوة فكرية ليؤسس لنظرية علمية. فالرحلة هي التنقل بين أرجاء الطبيعة. والمكان متعدد الألوان والأشكال، فعناصر الطبيعة غير محدودة وتختلف من منطقة إلى أخرى حسب طبيعة المناخ والنّص الرحلي حافلٌ بجمال الطبيعة التي شاهدها وعايشها الرحّالة من بساتين وحدائق وأنهار ووديان وجبال وطيور...كل هذه العناصر كانت المحّرك الأساسي لاستمرارية الرحلة وجماليتها، فالشعراء قديمًا تغنّوا بجمال الطبيعة ورونقها لأنها كانت ملهمتهم يستمدون منها شعرهم وفكرهم، فكان الشاعر العربي يُحاكي الطبيعة ويُسخِّرها لخدمته، فأي قصيدة تخلُو من وصف الطبيعة كانت تعتبر جوفاء مملّة، نفس الشأن بالنسبة للرحّالة فمعظمهم عاشوا في حضن الطبيعة يأكلون خيراتها وينتفعون بمنافعها فكل رحالة شاهد منظرا طبيعيا استهْوَتهُ نفسه واستشعرتهُ عينُه دونه في الرحلة ومن ذلك وصف الإدريسي لجبل درن: "**جبل درنْ* الأعظم الذي ليس جبلٌ مثله إلاّ القليل في السُّمو وكثرة الخصب وطول المسافة واتصال العمارات ومبدؤُهُ من البحر المحيط في أقصى السُوس ويمرُّ مع المشرق مستقيمًا حتى يصل إلى جبل نفوسه فيسّمى هناك بجبل نفوسه ويتصّل بعد ذلك بجبال طرابلس ثم يدّقُ هناك ويخفى أثرهُ.....وفي كل هذا الجبل كل طريقة من الثمار وغرائب الأشجار والماء يُطردُ منه وبوسطه وحوافيه. يوجد النبات أبدًا مخضّرا من كل الأزمان...وفي هذا الجبل من الفواكه التين الكثير الكبير الطيب المنتاهي في الطيب**

* جبل درن يطلقه الجغرافيين العرب على سلسلة جبال الأطلس التي تشكل هيكل شمال إفريقيا والتي تمتد من المحيط الأطلسي إلى خليج تونس مخارقة المغرب الأقصى والجزائر وتونس.

البالغ الحلاوة وفيه العنب المستطيل العسلي الذي لا يوجد في أكثره نوَى وفيه الجوز واللّوز والرمان...إلخ"[1].

الرحّالة وصف لنا الجبل وصفًا دقيقا منتظمًا فحتى الفواكه الموجودة فيه ذكرها بأنواعها وألوانها وفوائدها فزواج الرحّالة بين عناصر الطبيعة من أشجار ومياه وفواكه وكأنه أعطانا لوحة فنّية امتزجت فيها عناصر الطبيعة مع إحساس الفنان الذي هو الرحّالة بالدرجة الأولى.

ويصف الإدريسي نهر مدينة سجلماسة** لكثرة مياهه فيقول: "....**يزيدُ في الصيف كزيادة النيل سواء، ويُزرع بمائه جسيما يزرع فلاحُو مصر ولزراعته إصابة كثيرة معلومة وفي أكثر الأعوام الكثيرة المياه المتواترة عن خروج هذا النهر ينبتُ لهم ما حصدوهُ في العام السابق من غير بذرٍ، وفي الكثير من السنين إذا فاض النهر عندهم ثم رجع، بذرُوا على تلك الأرض زرعهم ثم حصدوه عند تناهيه وتركوا جذورَهُ إلى العام القادم فينبت ذلك من غير حاجة إلى بذور زراعةٍ، وحكى الحوقلي أن البذر بها يكون عامًا والحصاد فيه في كل سنةٍ إلى تمام سبع سنين لكن تلك الحنطة التي تنبتُ من غير بذرٍ تتغير عن حالها حتى تكون بين الحنطة والشعير...**"[2].

الماء هو الحياة وهو مجلاً من مجالي الطبيعة، ونهر النيل ورد وصفه تقريبا في كل الرحلات مما أدى ببعض الرحالين إلى تشبيه بعض الأنهار لكثرة جريانها بنهر النيل، ونهر سجلماسة مائه لا ينقطع على مرّ السنة لهذا يكثر المحصول والزرع المسقى بمائه فما عسانا إلاّ أن نقول تبارك الله أحسن الخالقين.

---

[1]- القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس مقتبس من كتاب نزهة المشتاق للإدرسي ص134،133،132 تحقيق إسماعيل العربي ديوان المطبوعات الجامعية 1983.

** سجلماسة قامت على أنقاض مدينة رومانية تقع على مسيرة 200 ميل في جنوب الشرقي لمدينة فاس على تخوم الصحراء.

[2]- القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، ص128-129.

وصف وادي بوردو الجميل:

إن المكناسي رحّالة مغربي كانت له جولات كثيرة في العالم خاصّة زيارته لمدن أوروبية فأعجب بمدنها وشوارعها ومن بين المدن التي شدّت انتباهه فرنسا أو كما يقول فرانسا التي تركت في نفسه انطباعًا يعجز اللّسان عن التعبير عنها، فجمال فرنسا لا يراه في مدنها فقط بل في طبيعتها الخلاّبة التي رسمتها أناملُ ساحر فها هو يصف لنا وادي دوردو:"**ولما كان يوم الثلاثاء أواسط النهار، رأينا ما افرح قلوبنا وأزال عنا الأكدار وهو ظهور البّر، فبدا لنا مصب نهر بوردو في البحر الاطلانطيكي**"[1]

ثم يصف لنا منظر الوادي وهم يقتربون منه"**وصرنا كلما نقصت المركب في سيرها قربت منا مناظر البّر الجميلة**"[2] فمنظر الوادي أصبح جميلا كلما اقتربت السفينة منه فبدا واضحًا أكثر من الأول.

ثم يواصل حديثه عنه و كأنه شاعر ينظم قصيدة شعرية امتزج فيها هديرُ الوادي مع تلاطم الأمواج: "**.....بل لا يكاد يوجد أجمل منه، فهو شاطئ ممتدٌ طويلاً ناشرًا جناحيْه أخضرين على عرض البحر، ريشه أشجار الغابات اليانعة المتناغية في الجو المنتظمة الترتيب، المتقاربة في العلو، تبدو رؤوسها متناسقة ..فكأنها هي بردة من يانع يسحبُ. وخضرتها بالأرض اتصلت كأنما هي رفرف أخضر...**"[3] فالرحّالة شبه الوادي بذاك الطائر الباسط جناحيه على عرض البحر وريشه أشجار الغابات المتناغية وهي على استقامة واحدة وكأننا أمام لوحة زيتية جمعت منظر الماء يعكس دفئه على الأشجار التي تنوعت بين خضرة الغابات وصفاء الماء.

---

[1]-أوربا في مرآة المرحلة، صورة الآخر في الرحلة المغربية المعاصرة، ص117.

[2]- المصدر نفسه، ص117.

[3]- المصدر نفسه، ص151.

ثم يذهبُ بنا الرحّالة غير بعيد عن فرنسا وهي عاصمتها باريس ليصف لنا غابة بولون:"...**وكل قسم منها متنزّه من المتنزهات التي هي أحسن ما تستلذه العين في هذه الدار الفانية نوّعوها بأنواع الشجر الجميل المنظر الخالي عن الطعم ونسقوه تنسيقًا بديعًا، وهذَّبوهُ وقوّمُوا معوجّهُ وربوه تربية بحيث لا ترى إلاّ ما تستلذهُ الأنظار**"[1]

فالمكناسي أعطانا وصفًا دقيقا لمشاهد غابة بولون وهذه الغابة لا تقلّ جمالا ورونقا عن وادي بوردو، رغم ما تتصف به هذه الغابة من مناظر تسحر العين وترتاح لها النفس فقد قال عنها الدار الفانية، وهذا يدل على إيمانه العميق بان جنّة الله هي الأزلية الخالدة، أما جنّة الأرض مهما بلغت من الجمال والسّحر ستزول لأنها حكمة الله في خلقه.

والرحّالة المغربي الحسن " **بن محمد الوزّان الفاسي**" زار مدينة تلمسان وكانت له انطباعات ومواصفات عن هذه المدينة الجميلة التي أضحت قبلة للزّوار والرحالين وهاهو يصف جبل بني يرناسن:"**يقع هذا الجبل على بعد نحو خمسين ميلاً غربي تلمسان، ويتاخم من جهة قفز كرط، وقفْرُ أنكاد من جهة أخرى، ممتدًا على طول خمسة وعشرين ميْلاً، وعلى عرض نحو خمسة عشر ميلاً، وهو شديد الوعورة والارتفاع، صعب المسالك تكسوه غابات كثيرة تنتج كمية وافرة من الخروب الذي يعتبر الغذاء الرئيسي للسكان...وفي أعلى الجبل قلعة حصينة يقيمُ بها أمراء البلاد..**"[2]

تلمسان مشهورة بجبالها الشامخة التي زادت من جمال المدينة إضافة إلى قلاعها الحصينة التي كانت مقرًّا للأمراء دون أن ننسى أشجار الخّروب التي جعلتها تظهر في حلّةٍ جميلة زيادة على كون هذه الأشجار تمثل الغذاء الرئيسي لسكان تلمسان.

---

[1]- أوربا في مرآة المرحلة، ص151.

[2]- وصف إفريقيا للحسن بن محمد الوزّان الفاسي الجزء الأول، ط2 1983، دار الغرب الإسلامي ص43.

الفصل الثالث

جمالية التصوير في رحلة ابن بطوطة

سيكون رفيقنا في هذا الفصل رجلاً فريدًا في تاريخ الحضارة الإسلامية والحضارة الإنسانية جميعًا. وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللّواتي الطنجي، رحّالة الإسلام دون منازع وهو واحد من أولئك الأفذاذ الذين خطرهم الله على السعي الدائب نحو المعرفة والكشف عن ستر المحجوب وتحمل المشّاق وركوب الأخطار في سبيل المعرفة، ولا هدف لهم من وراء النصّب إلاّ لإشباع ذلك الشوق النبيل إلى العلم وإطفاء الغلة إلى توسيع الأفق ومعرفة البلاد والعباد، وقد سمعنا جميعا عن ابن بطوطة ولكن القليلين منّا اهتّموا بأن يعرفوا عنه أكثر من الاسم وانه صاحب رحلاتٍ وأسفارٍ وأحاديث مستغربة فرحلة ابن بطوطة معروفة متداولة بأيدي الناس وهي قصة جميلة حافلة بالمعلومات الصادقة الدقيقة بالإضافة إلى ما فيها من الغرائب والطرقِ وراويها رجلٌ صدوقٌ لا يتكلّف شيئا في أحاديثه بل كان هو نفسه لا يُفكر في تسجيل رحلته لو لا أن النّاس ألحّوا عليه في ذلك ولو لا أن سلطان بلده طلب إليه تدوين الرحلة.

قام الرحالة بثلاثِ رحلات زار في الأولى بلاد المشرق الإسلامي بما فيها الهند والصين، وزار في الثانية بلاد الأندلس وفي الثالثة بلاد السودان المغربي، وكان قد غادر طنجة مسقط رأسه في يوم الخميس الثاني من رجب عام 725هـ قاصدًا حج بيت الله وهو لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره، فأداء فريضة الحج كان الدافع الأساسي لقيامه بالرحلة فيقول الشيخ أبو عبد الله :"**كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمداً حجّ بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام....**"[1]

وطاف الرحالة بعدة بُلدانٍ جابَ فيها الشرق والغرب وزَارَ بلدان غير إسلامية فتعرف إلى أهلها وشاهدَ ودون كل ما رأتهُ عينه واستحبتهُ نفسه، فراح يُدّون في الرحلة عادات الناس

[1]- رحالة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت ص 14.

واختلافها عند كل قومٍ من الأقوام، وتعرف إلى السلاطين والملوك والفقهاء الذين كانوا أهم محطة من محطات الرحلة فراح يصف مأكلهم ومشربهم وأخلاقهم ومذاهبهم وبحكم نزعته الدّينية راح يصف الأماكن المقدسة من مساجد وزوايا فلم يترك زاوية أو مسجدًا وطئتْهُ رجلَهُ إلاّ وصفه، ولم ينسَ الطبيعة باعتبارها مهد الإنسان ولَحْدَهُ فراح يصف الجبال والأنهار وكل شيء موجود في الطبيعة شاهدتهُ عينه إلاّ ذكره في الرحلة، فابن بطوطة أعطانا صورة حيّة عن المجتمع بصفة عامة بما فيه الإسلامي وغير الإسلامي فوصفه لهذا المجتمع لم يكن من تأويل العقل بل راجع إلى المشاهدة والمعاينة، وبالرغم من أن ابن بطوطة لم يقم بكتابةِ رحلتِه بنفسه، بل تولّى الكتابة محمد بن جري بأمرٍ من السلطان أبي عِنّان، فالمتصفح لهذه الرحلة يجدها متنوعة وشاملة لكل صغيرة وكبيرة، ورحالتنا إنسان بسيط غلبت عليه النزعة الإنسانية والدينية، فنلمسُ عاطفة التأسف والتحّسر عندما يصف سلوكات أو عادات منافية للدّين الإسلامي، وأخرى عاطفة إعجاب وامتنانٍ لذكره لكرامات الأولياء والصالحين والرحلة نجد فيها نوعٌ من الطرافة والبساطة وابن بطوطة الذي كان هدفه من ورَاء الرحلة إعطاء صورة كاملة عن المجتمع وعاداتهِ.

التصوير:

التصوير من الصورة وهي ذلك الأثر الذي يسقط عن جسم ما، كظل الإنسان الذي تعكسه أشعة الشمس، والتصوير يكون مرئيا يعني تُشاهده العين وتلمسُه اليد وقد يكون معنويا يرسمه الخيال في الذاكرة لأشياء نعجز على تصويرها في الواقع فيعمد عقل الإنسان إلى ترتيب الأفكار وتنظيم الصور ليخرج بعد ذلك بالصورة النهائية، فالفنّان الرسّام يترك بصماته على

اللّوحات التي يرسمها لتصوير مشاعره وتأثيرها في الجمهور، فالصورة تطلق "**عادة للدلالة على ماله صلة بالتعبير الحسّي وتطلق أحيانًا مرادفة للاستعمال الاستعاري للكلمات** [1]

فالتصوير هو تلك الصورة المتحركة التي تجعل الإنسان يذهب بخياله إلى بعيد فتتحرك المشاعر لتشعل لهيب الإبداع لينجز لنا لوحة فنّية بتقنيات وتشكيلات جمالية.

تصوير الأماكن المقدسة:

أغرم بنو اميّة بإقامة المباني الفخمة والمساجد الجميلة فكان عبد الملك بن مروان، أول من وضع أساس مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى بالقدس الشريف، فكان هدفه إنشاء معالم إسلامية للقضاء على الكنائس الموجودة في عصره وكذلك ليكون هذين المسجدين قبلةً للمسلمين بعد المسجد الحرام ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن بين المعالم الإسلامية الخالدة المسجد الأموي بدمشق، أو كما يعرف بمسجد بني أمية، فبناه الوليد بن عبد الملك الذي ورث هدا الحسُ الفني عن أبيه عبد الملك بن مروان، وابن بطوطة زارَ هذا المسجد وطاف في أرجائِه فراح يصفُهُ: "**هو من أعظم مساجد الدنيا احتفالاً، ولا يوجد له نظير وكان الوليد بن عبد الملك هو الذي تولى بنائه، والمسجد كان في الأول كنيسة ولمّا فتح المسلمون دمشق أخذوا نصف الكنيسة عنوة وبنوا مكانها مسجدًا وهو مزين بفصوص من الذهب المعروفة بالفسيفساء بألوانٍ مختلفة ومساحة المسجد كبيرة وعدد شمسياته أربع وسبعون من الرّجاج الملّون، وأمام المحراب قبةُ الرّصاص المسّماة بقيت النسر كأنهم شبهوا المسجد نسرًا طائرًا والقبة رأسه وهي من أعجب مباني الدنيا، ويوجد في الصحف ثلاث قبابٍ، وللمسجد ثلاثُ صوامع، وعدد المؤذنين به سبعون مؤذنًا، وفي**

[1] نظرية التصوير الفنّي عند سيّد قطب، صلاح عبد الفتاح الخالدي ص75، دار الشيهاب، الجزائر 1988.

وسط المسجد قبر زكريا عليه السلام وعليه تابوتٌ معترض بين أسطوا نتين مكسوٌ بثوبٍ حرير مكتوب عليه بالأبيض" يا زكريا ؟ إنا نبشرك بغلامٍ اسمه يحي" وهذا المسجد شهير الفضل، وقرأت في فضائل دمشق عن سفيان الثوري أن الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألفِ صلاة وفي الأثر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال":يعبَدُ اللهُ فيه بعد خرابِ الدنيا أربعين سنة"، ومن فضائل المسجد انه لا يخلُو من قراءة القرآن والصلاة إلاّ قليلاً...والناس يجتمعون به كل صباحٍ إثر صلاةِ الصبح فيقرأون سبعًا من القرآن ويجتمعون بعد صلاةِ العصر ويقرأون سورة الكوثر..."[1]

مما سبق ذكره نلاحظ أن مسجد بني أمية كان في غاية الجمال والروعة فلقد أنفق على بنائه أموالاً كثيرة ليكون رمزًا دينيّا من رموز الحضارة الإسلامية، فجدرانه من فصوص الذهب وأعمدته من الرخام تعلوها تيجان ترمز لعظمة وقوة الدولة الأموية، والذي زاد من قدسية المسجد وجود قبر زكريا بالحرم ليتبرك به المصلّون، وهذا يدل على أن أنبياء الله كانت لهم بصمة طيبة في بيوت الله والرحّالة بوصفه لهذا المسجد العظيم ترك لنا أثرًا طيبًا عن معالم الحضارة الإسلامية الخالدة إلى يومنا هذا بما فيها المسجد الأموي.

ثم يشّدُ ابن بطوطة الرحال إلى القدس الشريف باعتباره أولى القبلتين وثالث الحرمين، ليصف لنا مسجد قبة الصخرة فعبد الملك بن مروان عندما بنى هذا المسجد كان هدفَهُ ترغيب الناس لزيارته لأن معظم الناس كانوا يتجهّون لزيارة المسجد الحرام وكان هدفه أيضا القضاء على معالم الكنيسة التي تركها النصارى والمسيحيون وإقامة مسجدًا جامعا يرمز إلى وحدة الدّين الإسلامي وفنيّات العمارة الإسلامية التي اعتمدت على الزخرفة الإسلامية والقطاء على الصور والتماثيل التي كانت موجودة في الكنائس، فابن بطوطة يصف قبة الصخرة:"**هي من أعجب**

[1] رحلة ابن بطوطة، ص 88.

المباني وأتقنها وأغربها شكلاً فأخذت من كل بديعة بطرف، وهي قائمة على نشز في وسط المسجد، يُصعد إليها في درج رخّامٍ، ولها أربعة أبوابٍ والدائرُ بها مفروش بالرّخام أيضا محكم الصنعة وكذلك داخلها وفي ظاهرها وباطنها من أنواع الزواقة ورائقَ الصنعةِ ما يعجزُ الواصف، وأكثر ذلك مغّشى بالذهب فهي تتلالأ نُورًا وتلمعُ لمعان البرقِ، وفي وسطِ قبة الصخرة الكريمة التي جاء ذكرها في الآثار فإن النبيّ صلّى الله عليه وسلم عرج منها إلى السماء وهي صخرة صمّاء، ارتفاعها نحو قامةٍ والقبة مغطّاة بصفائح من الرّصاص ومن الداخل يوجد خشب للتهوية ...فالمتأمل لها يعجزُ لسانه عن التعبير لجمالها وزخرفتها".[1]

إن مسجد قبة الصخرة إحدى المعالم الإسلامية الخالدة التي تعكسُ شخصية الفنان المسلم، فهذا الصرح المقدس هو من إبداع المسلمين الذين كانت لهم إسهامات كبيرة في بناء الحضارة العربية الإسلامية من بينها إنشاء المساجد ودورِ العلم لتكون شاهدًا حيًّا على عبقرية المسلمين الذين كان هدفهم نشر الإسلام والمحافظة على الروابط الدينية.

بعدها يتجه ابن بطوطة إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحجّ فيصف لنا كل مشعرٍ حرامٍ في مكة، ويلبّي بداء ربِه و يلتحق بركب الحجّاج فيؤدي مناسكَ الحج، ثم يزور مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة وبجانبه قبورَ الصحابة، فيصف لنا المشهد وكأنه صورة حيّة أمامنا مفعمة بالنورانية والقيم الروحيّة والدينية فراح يصف المسجد وروضته الشريفة: "**المسجد المعظّم مستطيل تحُفُّه من جهاته الأربع بلاطاتٍ دائرة به ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل، ويدور بالمسجد الشريف شارع مبّلط بالحجر المنحوت، والروضة المقدسة صلوات الله وسلامهُ على ساكنها لا في الجهة القبلية مما يلي الشرق من المسجد الكريم**

[1] رحلة ابن بطوطة ص 58.

وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله وهي مدّورة بالرّخام البديع النحت الرائق قد علاها تضميخُ المسكِ والطيب مع طول الأزمان وفي الصفحة القبلية، منها مسمار فضة هوَ قُبالة الوجه الكريم، وهنالك يقف الناس للسلام مستقبلين الوجه الكريم، مستدرين القبلة فيسلمون وينصرفون يمينا إلى وجه أبي بكر الصدّيق ورأس أبي بكر الصديق رضي الله عنه عند قدمي رسول الله، ثم ينصرفون إلى عمر بن الخطاب ورأسُ عمر عند كتفي أبي بكر رضي الله عنهما...."[1]

حقيقة يعجز اللّسان عن الكلام والتعبير أمام وصفٍ كهذا ويا له من وصفٍ عادٍ، بل هو تحّدى حُدود المشهد خاصّة قبر رسول الله صلّى الله عليه وسلم أو كما يعرف بالروضة الشريفة فالمتأمل لهذه الفقرة يجدّ ألفاظها تفيض بالمعاني الإيمانية والروحية، فالرّحالة أعطانا شرحًا وتفسيرًا واضحًا عن مسجد رسول الله والشيء الجميل والجليل في وصفه هو تصوير لنا قبر رسول الله وكأنه أمامنا إذ يقول بأن رأس أبي بكر عند قدمي رسول الله، فيا له من مشهدٍ عظيم ترتجف منه القلوب وتتهافت العيون لرؤيته، فقد شاءت الأقدار أن يُجَاورَ أبَا بكرٍ وعمر رضي الله عنهما رسول الله في دار الخلود بعدما كانوا من خيرة صحبته عليه الصلاة والسلام. فطوبى لمن زارَ مدينة المصطفى وتبّرك بتربتها الطاهرة، ونَالَ رضى الله ورسُوله وصحابته الكرام رضي الله عنهم أجمعين.

تصوير العادات والتقاليد:

فمن خلال تصفحّي لرحلة ابن بطوطة لاحظت أن فيها من العجائبية والغرائبية ما يذهلُ العقل، خاصة وأن الرّحالة شاهد بعينيه عادات منافية تماما للدين الإسلامي، فللأسف كنا نسمع بهذه العادات المنتشرة عند سكان الهند، لكن لم نتأكد من مصداقيتها، وجاءت رحلة

[1] رحلة ابن بطوطة ص144.

ابن بطوطة لتثبت لنا ممارسة هذه العادة التي تأصلّت في نفوس الهنود، فابن بطوطة يصور لنا أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار فيقول:"**ولما انصرفت عن هذا الشيخ...أخبروني أن رجلاً كافرا من الهندمات وأججّت النار لحرقه وامرأته تحرق نفسها معه....**"[1]

فبالرغم من بشاعة المنظر إلاّ أن ابن بطوطة تملّك نفسه لينقل لنا المشهد بكل حذافره.

-ثم يواصل الحديث ليصور لنا مشهدًا غريبا وهو أن المرأة في الهند عندما يموت زوجها تحرق نفسها أيضا فداءً له فلا تروق لها الحياة من بعد موته، فإحراق النفس دليل على إخلاصها له والغريب في الأمر أنه تُقام الاحتفالات لذلك لمدة ثلاثة أيّام تقرع فيها الطبول إكراما للمرأة التي تضحّي بنفسها فيقول:"**كنت بمدينة أكثر سكانها كفار تعرف يا بحري وأميرها مسلم من سامرة السند...فجرى قتال بين المسلمين والكفّار وتوفّى ثلاثة رجال من الكفار ولمّا سمع نسوتُهُنَ نبأ وفاة أزواجهن عزمنا على إحراق أنفسهن، وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمرٌ مندوب إليه غير واجب، لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرزُ أهلَ بيتها شرفا بذلك، ونُسبوا إلى الوفاء ومن لم تُحرق نفسها لبست خشنَ الثياب فتقام الاحتفالات للنسوة الثلاث، وفي اليوم الرابع تتزين المرأة وتتعطر والبراهمة يشجعونها ثم تذهب إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار فيه صهريج تتآكل فيه النار أعادنا الله منها. فتتصدق بالحلّي ثم ترمي بنفسها داخل الصهريج وفي رمشة عين تصير رمادًا**[2].

نلاحظ ان هذه العادة مذمومة في الدين الإسلامي وقتل النفس هو من الكبائر التي نهى عنها ديننا الحنيف، ومما يلفت الانتباه أن معظم سكان الهند مسلمون والرحالة ذكر بأن الكفار هم الذين يحرقون أنفسهم سواء أكانوا رجالاً أو نساءً، وقال بأن أمير بابحري مسلم وإذا كان

[1] رحلة ابن بطوطة ص411.

[2] ينظر رحلة ابن بطوطة ص 411، 412.

هذا الأخير يؤمن بتعاليم الدّين الإسلامي وبرسالة الصادق الأمين فلماذا لا يمنع هذه الظاهرة الشنيعة؟ أو يقضي عليها نهائيا؟ حتى ولو كان من يقوم بهذه الطقوس كافرًا وليس مسلمًا.

-ويواصل ابن بطوطة ليصف لنا مشهدا آخر لا يقل غرابة عن الأول عند سكان الهند فيقول: **"وكذلك يفعل أهل الهند أيضا في الغرق، يغرق كثير منهم في نهر الكنك* وهو الذين إليه يحجّون، وفيه يرمي برماد هؤلاء المحرقين وهم يقولون إنه من الجنّة، وإذا أتى أحدهم ليُغرق نفسه يقول لمن حضره: لا تظنّوا أني أغرق نفسي لأجلِ شيء من أمُورِ الدنيا أو لقلة مالٍ، إنما قصدي التقرب إلى كساي، وكساي اسم الله عز وجل بلسانهم، ثم يغرق نفسه، فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورَمُوا برماده في البحر المذكور"**[1]

فهذه العادات السيئة موجودة بكثرة عند سكان الهند فبالرغم من إيمانهم بالله عز وجل يظنون أن الغرق وإحراق النفس هو التقرب إلى الله وهذا يتنافى مع تعاليم الدين الحنيف الذي يُحرم قتْلَ النفس، نستطيع أن نقول بأن سكان الهند لم يفهموا جيدا الدين الإسلامي فرغم إسلامهم ما زَالوا يعيشون جاهليتهم الأولى بممارسة هذه الطقوس التي ليست لها أي صلة بمبادئ الإسلام ومُثُلِهِ.

فمن الأمور التي شدّت انتباهي وأنا أتصّفحُ رحلة ابن بطوطة ذكر الطعام وأنواعه، لأن الطعام أهميته لا تقتصر على التغذية فحسب بل الطعام يرتبط بالبيئة والعادات والتقاليد، والحياة الثقافية والفكرية، لأن طهيه وتقديمه له تقنيات تختلف من منطقة إلى أخرى ومن شخص إلى آخر، فمائدة الملك والسلطان لها مميزاتها الخاصة ومائدة الخدم والعاملين تختلف عن مائدة الأمراء، كذلك الأواني والملاعق المستعملة ليست بنفس المستوى، نستطيع أن نقول بأن الطعام

* الكنك: النهر المقدّس عند الهنود.

[1] ينظر رحلة ابن بطوطة ص 413.

هو سلوك حضاري انفرد به الإنسان عن باقي الكائنات الحيّة منها الحيوان الذي يشترك مع الإنسان في إشباع الحاجة الفسيولوجية لأجل البقاء واستمرار الحياة ومن خلال نصوص رحلة ابن بطوطة نستشّف منها اختلافا كثيرا في تقديم الأكل بل والأهم من ذلك أن الطعام له دلالة اجتماعية ورمزية ثقافية.

الخاص والعام في ترتيب الطعام لابن بطوطة:

والطعام بدار السلطان على صنفين: الطعام الخاص والطعام العلم: "فإما الخاص فهو طعام السلطان الذي يأكل منه، وعادته أن يأكل في مجلسه مع الحاضرين، ويحضر لذلك الأمراء والخواص وأمير حاجب ابن عَم السلطان، وعمادُ الملك سرتيز، وأمير مجلس ومن شاءَ السلطان تشريفَهُ أو تكريمَهُ من الأعزة أو كبار الأمراء دعاهُ فأكل معهم، وربما أراد أيضا تشريف احد من الحاضرين فأخذ إحدى الصحاف بيده، وجعل عليها خبزة، ويعطيه إيّاهَا فيأخذها المتعطَى ويجعلها على كفّه اليُسرى، ويخدم بيده اليُمنى إلى الأرض. وربما بعث من ذلك الطعام إلى من هو غائب عن المجلس، فيخدم كما صنع الحاضر، ويأكلهُ مع من حضرهُ، وقد حضرت عدّة مراتٍ لهذا الطعام فرأيت جملة الذين يحضرون له نحو عشرين رجُلاً".[1]

وأما "الطعام العام فيؤتَى به من المطبخ، وأمامهُ النقباءُ يصيحُونَ: بسم الله ونقيب النقباء أمامهم بيده عمود ذهب. ونائبه معه بيده عمود فضة، فإذا دخلوا من الباب الرابع وسمع به من بالمشور أصواتهم قاموا قيامً أجمعين، ولا يبقى أحدٌ قاعدًا إلاّ السلطان وحدهُ، فإذا وضع الطعام بالأرض إصطفت النقباء صفًا، ووقف أميرهم أمامهم وتكلم بكلامٍ يمدح فيه السلطان ويثني عليه، ثم يقدمُ النقباء لخدمته، ويخدمُ جميع من بالمشور من كبير وصغير.

[1] رحلة ابن بطوطة ص 450.

وعادتهم أنه من سمعَ كلام نقيب النقباء حين ذلك وقف إن كانَ ماشيًّا، ولزم موقفهُ إن كان واقفًا، ولا يتحرك أحد ولا يتزحزحُ عن مقامه حتى يفرغ ذلك....وطعامهم الرقاق والشواء والأقراص ذات الجوانب المملوءة بالحلواء والأرز والدجاج والسمك.

وعادتهم أن يكون في صدر سماط الطعام القضاة والخطباء والفقهاء والشرفاء والمشايخ، في أقارب السلطان، ثم الأمراء الكبار، ثم سائر الناس...فإذا جلسوا أتى السقاة بأيديهم أواني الذهب والفضة والنحاس والزجاج مملوءة بالشراب المحلول بالماء، فيشربون ذلك قبل الطعام، ثم يشرعون في الأكل، ولا يأكل أحد مع احد في صحفة واحدة ...وطعامهم مرّتان احد هما قبل الظهر والأخرى قبل العصر"[1].

نلاحظ أن ابن بطوطة قدّم لنا شرحًا ووصفًا مفصلا عن مائدة السلطان وحاشيته وطريقة تقديم الطعام، بيدَ أنه قسّم الطعام إلى الخاص والعام، فخصّ الخاص بالسلطان وحاشيته من ملوك وأمراء وحاجب السلطان وذكرَ بأن مائدتهم مميّزة عن البقية، والذي زَادَ من خصوصيتها استعمال أواني الذهب والفضة والنحاس، أما طعام العامة فيخصّ الخدم وسائر العاملين بالقصر، والشيء الملفت للنظر أنه عندما يجلس العامة أمام المائدة لا يجوز لهم تناول الطعام إلاّ بعد أن يأذن لهم السلطان بذلك، فعادة تقديم الطعام تختلف من عصر إلى آخر تتحكم فيه الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية للمجتمع الإسلامي.

[1] رحلة ابن بطوطة ص 451.

عادات أهل مكة في شهر رجب:

شهر رجب هو من الشهور المباركة التي تكثر فيها البركات والحسنات وتعود الناس في هذا الشهر المبارك على الصوم كل واحدٍ حسب استطاعته والتقّرب إلى الله بالنوافل والصدقات، وابن بطوطة عندما زار مكة المكرمة ومكث بها مدة من الزمن، لاحظ أن اهلها يعظمون شهر رجب. وابن بطوطة يصوّر لنا كيفية التحضير لاستقبال هذا الضيف العزيز: "**وإذا هلَّ هلاَلُ رجب أمرَ أميرُ مكة بضرب الطبول والبوقات إشعارًا بدخول الشهر، ثم يخرج في أول يوم منه راكبًا، ومعه أهل مكة فرسانًا ورجالاً على ترتيب عجيب وكلّهم بالأسلحة يلعبون بين يديه، والفرسان يجولُونَ ويجرونَ...والأمير رَميئة والأمير عطيفة معهما أولادهما وقُوّادهما مثل محمد بن إبراهيم وعليّ وأحمد ابنّي صبيح...وغيرهم من كبار أولاد الحسن ووجُوه القُوَّاد وبين أيديهم الرايات والطبول وعليهم السكينة والوقار، ويصيرون حتى ينتهوا إلى الميقات ثم يأخذون في الرجوع على معهُودِ ترتيبهم إلى المسجد الحرام، فيطوف الأمير بالبيت والمؤذن الزمزمي بأعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوطٍ، فإذا طاف صلّى ركعتين عند الملتزم وصلّى عند المقام وتمسح به وهذا اليوم عندهم عيدٌ من الأعياد يلبسون فيه أحسن الثياب**".[1]

نلاحظ أن الاحتفال بهذا الشهر المبارك من طرف أهل مكة هو احتفال كبير حيث تقرع الطبول إشعارًا بدخول هذا الشهر ويخرج الناس في حُلّةٍ جديدة وكأنهم في يوم عيد، والفرسان يجولون ويجرون تعبيرًا عن فرحتهم لقدوم شهر رجب وربما هذه الخصوصية في الاحتفال بهذا الشهر هي عادة اختص بها أهل مكة لأن هذه الأخيرة هي الموطن الأصلي للحبيب المصطفى

[1] رحلة ابن بطوطة ص 162،163.

صلوات الله عليه، وفيها مقام إبراهيم الخليل عليه السلام وهي قبلة الحجّاج والمسلمين، فالرحّالة صور لنا طريقة الاحتفال وكأنها لوحة فنيّة رسمتها يَدٌ مغربية .

ذكر بعض أحوال الصين:

وتكون وجهة رحّالتنا هذه المرة إلى الصين، فيصّور لنا عادات أهلها التي تشبه عادات أهل الهند في حرق موتاهم:"**وأهل الصين كفّار يعبدون الأصنام ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود وملك الصين تتري من ذريته تنكيزحان، وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكانهم، ولهم فيها المساجد لإقامة الجُمعات وسوّاها...وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في أسواقهم، وهم أهل رفاهية وسعة عيش إلاّ أنهم لا يحتفلون في مطعم ولا ملبس، وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تُحصى أموالهُ كثرة، وعليه جبّة قطن خشنة، وجميع أهل الصين إنّما يحتفلون في أواني الذهب والفضة ولكل واحد مهم عكّاز يعتمد عليه في المشي ويقولون هو الرِّجل الثالثة...وعادتهم أن يسبك التاجر، ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعًا تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دُونه ويجعل ذلك على باب دارهِ، ومن كان له خمسُ قطع منها جعل في إصبعه خاتمًا، ومن كانت له عشر جعل خاتمين ومن كان له خمسُ عشرة سموه الستّي، وهو بمعنى الكارمي بمصر ويسمون القطعة الواحدة منها بزكالة**".[1]

من خلال قول ابن بطوطة نستنتج أن أهل الصين كفار يحرقون موتاهم فهم يشبهون الهنود في هذه العادة المذمومة لكن الشيء الجميل أنه بالرغم من وجود الكفار بالصين بالمقابل هناك المسلمون الذين لم يتأثروا بعادات الصين وهذا يدُل على أن الإسلام دين متين وجذوره

[1] رحلة ابن بطوطة 628،629.

منتشرة في كل مكان، وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في الأسواق وهم أهل رفاهية فالتاجر الغنّي منهم بالرغم من كثرة أمواله تراهُ يلبسُ جبّة قطن وبدلاً من أكل لحم الخروف يأكل الجيفة وما شابهما وهذا نتيجة لجهله وكفره اللّذين جعلاه يعيش عيشة حيوان بائسٍ.

كلمة أخيرة:

إن ابن بطوطة بهذه الرحلة العظيمة يمثل المواطن الإسلامي الذي طاف ارجاء العالم الإسلامي بدافع المغامرة وحب السفر وسيبقى دليلاً على وحدة الشعور الإسلامي أيّامها في أمصار الإسلام المتعددة وسيبقى يمثل نوعية فريدة من الرجال الرحالين على مدى الدُهور، فقد قدّم من خلال رحلته هذه كثيرا من المعلومات التاريخية والجغرافية عن مناطق معروفة وأخرى نسمعُ بها، وتزخر الرحلة بأخبار وحكايات غريبة شاهدها الرحالة بعينيه وأعطانا انطباعًا على عادات الهنود والصينيين في حرق الموتى، فالرحلة مليئة بالأخبار والحكايات الطريفة والعجائب والغرائب بيد أننا اقتطفنا بعض النماذج التي رأيناها مهمة تفيدُ بحثنا، والشيء الجميل أن ابن بطوطة صوّر لنا المجتمع الإسلامي الذي تربطه أواصر المحبة والمودّة الإنسانية، فجاءت هذه الرحلة لتكشف النقاب عن الإنسان في فكره وسلوكه وعاداته وتنظيمه الاجتماعي، وصورة الفقيه قد أخذت منحى آخر عند الرحالة المسلمين، وخاصة ابن بطوطة فأي رحالة عندما خرج من موطنه الأصلي، كان لا يملك فِلْسًا واحدًا من النقود ليقضي به حوائجَهُ، لكن هناك تنظيمًا محكمًا وضعته الأمة الإسلامية وهو نِظام الزوايا والربط وهي المدارس الخيرية يأوي إليها المسافِر فيجد من يستقبله ويقدم له الطعام وهذه الزوايا موجودة في كل مكانٍ ينزل بها الرحّالة كلّما تعسّر عليه مواصلة السفر، فقيمة الرحلة تكمن في أنها تعتبر مرجعًا يستفيدُ منه المؤرخ والأنثروبولوجي والجغرافي والأديب، لذا اهتّم العلماء بنشرها وترجمتها إلى لغات أخرى حتى

يفهمها الغير، وستبقى رحلة ابن بطوطة إحدى الكتب القيمّة التي ساعدت في النهُوض بتراثنا العربي والإسلامي والحفاظ على مبادئ الإسلام ومُثلهِ وهي حلقة وصلٍ وتواصل فكري وحضاري بين الأمم والأجيال.

خاتمة

خاتمة:

لقد تناولنا في هذا الموضوع جوانب مهمة تتعلق بجمالية فن الرحلة وتوصلنا إلى نتائج عديدة أهمّها:

* شكّل أدب الرحلة اهتمام الباحثين والمثقفين على حدٍّ سواء فكانت الرحلة الوسيلة التي عبّر بها الرّحالون عن تطلعاتهم وأفكارهم.

* تنوعت بواعث الرحلة بين طلب العلم وطلب التجارة والرغبة الشخصية إلا أن باعث الحج كان الدافع الأساس الذي اشترك فيه جميع الرّحالون.

* حظيت مكة المكرمة ومدينة الرسول عليه الصلاة والسلام بوصفٍ مشفعٍ عند جميع الرحالون المسلمون.

* صورة الفقيه أخذت منحى آخر في كتب الرحلة حيث يعتبرُ هذا الأخير المحطة الأساسية التي توقف عندها الرّحالون فكان الفقيه صورة لمجتمع إسلامي تربطه أواصر المحبة والأخوة.

* تلمسان كانت إحدى المدن المزارة من طرف الرحّالون المسلمون وكانت آثارها الخالدة النموذج الحيّ الذي يعكس تاريخ وحضارة تلمسان.

* يعدّ ابن بطوطة أول من يطرق باب الذاكرة ليتراءى في المخيّلة الشعبية رجُلاً جوّالا قطع البلاد من أوّلها إلى آخرها فقد حاز على صورة شعبية جعلت منه مثلاً يقتدى به الجميع.

* رحلة ابن بطوطة تمثل مرجعًا أساسًا يستفيد منه الأنثروبولوجي والجغرافي والأديب على حدّ سواء.

* تتجلى جمالية التصوير في رحلة ابن بطوطة في تصويره للعادات والتقاليد الشائعة في المجتمع الهندي والتي مازالت راسخة في عقولهم إلى الوقت الحالي.

* لقد صور لنا ابن بطوطة المجتمع الإسلامي الذي يخلو من الحروب والصراعات وتجمعه الروابط الدينية والروحية.

* سيظلّ ابن بطوطة الرحّالة الجوّال الذي آثار اهتمام الباحثين والقرّاء وسيبقى اسمه مسجّلاً في كتب التاريخ وفي سجل الحضارة العربية على وجه الخصوص.

قائمة المصادر والمراجع

❀ القرآن الكريم رواية ورش عن نافع.

المصادر والمراجع:

1)أدب الرحلة حسين نصّار، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، دار نوبار للطباعة روض الفرج، القاهرة.

2) أدب الرحلة عند العرب حسين محمود حسين، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

3) أدب الرحلات حسين محمد فهيم،(دراسة تحليلية من منظور أثنوغرافي) سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

4) أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، نوال عبد الرحمان الشوابكة، تقديم صلاح جرار، دار المأمون للنشر والتوزيع عمّان، الأردن.

5) الأسس الجمالية في النقد، عرض وتفسير ومقارنة عز الدين إسماعيل، دار الشؤون الثقافية العامة، العرق، بغداد.

6) أوربا في مرآة المرحلة، صورة الآخر في الرحلة المغربية المعاصرة سعيد بنسعيد العلوي، دار السويد للنشر والتوزيع.

7) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، عبد الرحمان ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان.

8) الجغرافيا والرحلات عند العرب، نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع.

9) الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان محمد محمود محمدين، دار الخريجي للنشر والتوزيع، طريق مكة.

10) جمالية المشهد في أدب الرحلة الجزائري الحديث، عيسى بخيتي، رسالة ماجستير 2011 م، إشراف الدكتور محمد مرتاض.

11) دور المسلمين في تقدم الجغرافيا الوصفية والفلكية إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر.

12) دراسات في علم الجمال مجاهد عبد المنعم مجاهد، عالم الكتب، بيروت.

13)رحلة ابن بطوطة، دار صادر.

14) الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر (مستويات السرد) عبد الرحيم مودن، دار السويد للنشر والتوزيع.

15) الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري)، ناصر عبد الرزاق الموافي، دار النشر للجامعات، مصر.

16) الرحلة الحجازية محمد السنوسي تحقيق علي الشنوفي مبرز ودكتور دولة في الآداب، تونس، الشركة التونسية للتوزيع .

17) الرحلة في طلب الحديث، الخطيب البغدادي، حققه وعلّق عليه نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

18) الرحلة والرحّالون المسلمون أحمد رمضان أحمد، دار البيان العربي للطباعة والنشر والتوزيع.

19) الرحلات، شوقي ضيف، دار المعارف، النيل، القاهرة.

20) رحلة الورتلاني عرض ودراسة مختار بن الطاهر فيلالي دار الشهاب، باتنة الجزائر.

21) رحلة القلصادي لأبي الحسن علي القلصادي الأندلسي، دراسة و تحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع.

22) رحلة إبن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر.

23) الرحلة العياشية، عبد الله بن محمد العياشي حققها سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، المجلد الأول دار السويد للنشر و التوزيع، الإمارات العربية المتحدة.

24) الرحلة السامية إلى الإسكندرية ومصر والحجاز والبلاد الشامية ابن عبد الله الكتاني الحسني، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء.

25) الرحّالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، نازك سابايارد، نوفل.

26) القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، الجزء الثالث، دار الجيل، بيروت.

27) القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس تحقيق إسماعيل العربي مقتبس من نزعة المشتاق للإدريسي، ديوان المطبوعات الجامعية.

28) لسان العرب ابن منظور الأنصاري الأفريقي المجلد السادس، دار صادر للطباعة والنشر، ص ب 01، بيروت، لبنان.

29) مبادئ الفلسفة أ.س رايويرت دكتور في الفلسفة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ترجمهُ أحمد أمين.

30) مفاهيم جمالية في الشعر العربي القديم (حاولة تنظيرية وتطبيقية) محمد مرتاض، ديوان المطبوعات بن عكنون الجزائر.

31) مروج الذهب ومعادن الجوهر عليّ بن الحسين المسعودي تقديم محمد السويدي، سلسلة الأنيس.

32) المقدمة، عبد الرحمان بن خلدون، دار الكتاب اللبناني ومدرسة بيروت، لبنان.

33) مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة حسّان حلاق، دار النهضة العربية للطباعة، بيروت.

34) نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار الشهاب الجزائر.

35) وصف إفريقيا للحسن بن محمد الوزان الفاسي الجزء الأول ، دار الغرب الإسلامي.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

مقدمة ..... أ

الفصل الأول: لمحة عن فن الرحلة

الرحلة لغة 2

الرحلة اصطلاحا 3

بواعث الرحلة 4

الرحلات أهميتها وعلاقتها بالعلوم وبالجغرافيا خاصة 14

الهيكل العام للرحلة 20

رواد الرحلة 22

الفصل الثاني: جماليات الرحلة العربية

مدخل إلى الجمالية 27

الوصف 31

وصف المدن 32

وصف الانسان 41

وصف الطبيعة 45

الفصل الثالث: جمالية التصوير في رحلة ابن بطوطة

التصوير 52

تصوير الأماكن المقدسة 53

تصوير العادات و التقاليد 56

الخاص والعام في ترتيب الطعام لابن بطوطة 59

عادات اهل مكة في شهر رجب 61

ذكر بعض أحوال الصين 62

كلمة أخيرة..... 63
خاتمة 65
قائمة المصادر و المراجع 68
فهرس الموضوعات 73